

صراع مع الشهوات

محمد صالح المنجد

دار الوطن للنشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خَلَقَ فسوَّىٰ وأنزَلَ الوحي لمَن اعتبر، وأودع في النفوس ما شاء فابتلىٰ واختبر، ووفَّق مَن شاء لهُداه وأضلَّ مَن شاء فذاك للجنة وهذا إلى سَقَر، وخَلَق المؤمن مُفْتَنًّا تواباً نَسِيًّا إذا ذُكِّر ذَكَر، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للبشر، وبعد:

فحياتنا فِتن ومجاهدة، وشهوات ومعركة، وميدان الشهوات كبير، والصراع فيه خطير. إنها معركة الإنسان مع الغرائز المستترة في أغوار النفس وطبيعة الإنسان.. والهالكون من بني البشر في معركتهم مع هذا العدو كثير.. والناجون قليل قليل.. فيجتمع للمنتصر في معركته هذه: إقامة المروءة.. وصون العِرْض.. وحفظ الجاه.. وراحة البدن.. وقوة القلب.. وطِيب النفس.. ونعيم الفؤاد.. وانشراح الصدر.. وقلة الهمِّ والغمِّ والحزن.. وعِزُّ المكانة.. وصون نور القلب.. وكثرة الدعاء لك.. ونَضْرة في الوجه.. ومهابة في قلوب العباد.. وزوال الوحشة.. وقرب الملائكة.. وبُعد الشياطين.. وذوق حلاوة الطاعة.. وطعم حلاوة الإيمان.. وزيادة في العقل والفَهْم.. وهكذا فضائلُ الدنيا وعظيمُ فضائل الآخرة.

قال مالك بن دينار: مَن غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يَفْرَقُ الشيطان من ظله.

«ولما كانت طريق الآخرة وَعِرَةً على أكثر الخلق؛ لمخالفتها لشهواتهم ومُباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم، قَلَّ سالكوها، وزَهَّدهم فيها قلةُ علمهم أو عدمه بحقيقةِ الأمر وعاقبةِ العباد ومصيرهم، وما هُيئوا له وهُيِّئَ لهم، فَقَلَّ علمُهم بذلك، واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى، وتوعَّرت عليهم الطريق، وبَعُدَتْ عليهم الشُّقَّة، وصعب عليهم مرتقى عقباتها، وهبوطُ أوديتها وسلوكُ شعابها، فأخلدوا إلى الدَّعَة والراحة، وآثروا العاجل على الآجل، وقالوا: عيشنا اليوم نَقْدٌ، وموعودنا نسيئة، فنظروا إلى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجِلِهَا، ووقفوا مع ظاهرها ولم يتأملوا باطنها، وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها، ودَرَّ لهم ثديُها فطاب لهم الارتضاع، واشتغلوا به عن التفكُّر في الفِطَام ومرارةِ الانقطاع. وقال مغترُّهم بالله، وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثِّلًا في ذلك:

خذ ما تراه وَدَعْ شيئاً سَمِعْتَ به ... ...»[1]

فتنة النساء عظيمة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٤٨).

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»**[١].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: **«اتقوا النساء؛ فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**[٢].

قال يحيى بن معاذ: مَنْ أرضى الجوارِحَ باللذات، فقد غَرَسَ لنفسه شَجَر الندامات.

وقال عبدالصمد الزاهد: مَن لم يعلم أن الشهوات فُخوخ، فهو لَعَّاب.

ولقائل أن يقول: إذا كانت الشهوةُ بهذه الخطورة، فلماذا خُلِقَتْ فينا أصلاً؟!

يقول شيخ الإسلام:

«إن الله خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحنا، فخَلَق فينا شهوة الأكل واللذَّة به؛ فإنَّ ذلك في نفسه نعمةٌ وبه يحصُلُ بقاء جسومنا في الدنيا، وكذلك شهوةُ النكاح واللذة به هو في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاء النسل، فإذا استعين بهذه القوى على ما أَمَرَنا، كان ذلك سعادة لنا في الدنيا والآخرة، وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمةً مطلقة، وإن استعملنا الشهوات فيما حَظَرَهُ علينا بأكل الخبائث في نفسها، أو كسبها كالمظالم، أو

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

بالإسراف فيها، أو تَعَدَّينا أزواجنا أو ما ملكت أيماننا: كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته»[١].

وهكذا «اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعثَ ومستحثَّاتٍ تَؤُزُّهُ أَزًّا إلى ما فيه قِوَامُهُ وبقاؤه ومصلحته»[٢].

فتأمل «كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سببُ تخليقِ الولد وتكوينِهِ»[٣].

و«اقتضت حكمته ـ سبحانه ـ خَلْقَ آدمَ وذريتِهِ من تركيب مستلزم لداعي الشهوة والفتنة، وداعي العقل والعلم؛ فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة، ونصبهما داعيَيْن بمقتضياتهما؛ ليتمَّ مراده، ويظهر لعباده عزَّته في حكمته وجبروته، ورحمته وبرّه، ولطفه في سلطانه وملكه»[٤].

إذن: الشهوةُ نعمة أنعم الله بها على المخلوق، وإنما المحظور صرف الشهوة في المحظور، وهي كذلك ابتلاء يبتلي الله بها عباده، لينظر: إياه يطيعون أو إياها.. وإياك من الانسياق في حبائل الشهوات المحرَّمة؛ فإنها مهلكة.

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٤١).
(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٧٦).
(٣) «مفتاح دار السعادة».
(٤) «مفتاح دار السعادة».

ومخاطرُ الانسياق وراء الشهوات كثيرةٌ، ومنها:

١ ـ الوعيد الأخروي:

توعَّد تبارك وتعالى أهل الفجور والفساد بالعذاب الشديد يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وقبل هذا العذاب يتعرَّض الزُّناة والزَّواني للعذاب في القبر، ويحدثنا ﷺ عن شيء مما يُعَذَّب به هؤلاء في قبورهم؛ فيصف ما رآه من تعذيب الزناة والزواني بقوله: «قال لي [يعني الملكين]: **انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التَّنُّور، أعلاه ضيّق وأسفله واسع، فإذا فيه لَغَطٌ وأصوات، فاطَّلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عُراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب، ضَوْضَوا ـ أي ارتفعت أصواتهم ـ وارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خَمَدَت رجعوا فيها، فقلت لهما: ما هؤلاء؟... قالا: وأما الرجال والنساء العُراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني...**»[1].

هذا بعض ما يتعرض له الزناة من العقوبة، فمَن يطيق ذلك؟! وأي عاقل يُعَرِّض نفسه لهذه العقوبة؟! وليعلم الشباب والفتيات الذين لم يصلوا إلى ممارسة الفاحشة، أن المقدمات «النظر،

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٦).

الكلام، اللمس...» هي أول خطوة في طريق الفاحشة، وأن الجرأة عليها تقود إلى ما بعدها.

تفنَى اللذاذةُ ممن نالَ صفوتَها   من الحرامِ ويبقَى الوِزْرُ والعارُ
تَبقَى عواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِهَا   لا خيرَ في لذةٍ من بعدِها النارُ

٢ـ أن كل شهوة تستدعي ما بعدها حتى يهلك الإنسان:

لقد أقسم الشيطان أمام الله عز وجل أن يسعى لإغواء عباد الله مهما وجد لذلك سبيلاً: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إنه يسعى بكل وسيلة لإغواء العبد وإضلاله، وهو يعلم أنه حين يوقعه في معصية ـ ولو صغيرة ـ قد تقدَّم خُطْوة، وقد أصبحت الجولة التي تليها أهونَ من التي قبلها، لقد أخبر الله عز وجل عن الذين فرّوا من المعركة في أُحُد، وكيف أوقعهم الشيطان في هذه الكبيرة التي هي من الموبقات بسبب بعض ذنوبهم ـ وقد غفر لهم تبارك وتعالى ـ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

إنه يسعى بكل وسيلة لإيقاعك في الصغيرة، ثم يتدرَّج بك إلى الفواحش، ثم يقول بعد ذلك: قد خسرت الدنيا والآخرة؛ فتمتع بما تشاء من الشهوات، وخض في الوحل، فيقطع عليك خط الرجعة.

والمتأمِّل في الواقع اليوم يرى أن معظم الشباب والفتيات الذين ساروا في طريق الغواية والانحراف، كانت البداية لديهم من طريق هذه الشهوة.

٣ ـ سوء الخاتمة:

«فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»[(١)].

ولذلك كان السلف يَخْشَوْنَ سوء الخاتمة، بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فقيل له: أكل هذا خوفاً من الذنوب؟! فقال: الذنوب أهون، إنما أبكي خوفاً من الخاتمة.

إن التعلُّق بالشهوات واستيلاءها على القلب من أكبر أسباب سوء الخاتمة.

وما من أحد إلا وفي خاطره هَمٌّ يجوس به يملك عليه مشاعره: فهذا همه الأصغر والأكبر الدينار والدرهم، وذلك همّه الشهوات ومتعة النفس، لكن الآخر همّه هناك في الدار الآخرة، وإنْ فكَّر في الدنيا ففي حال الأمة وفي تقصيره وذنوبه، وحين يحل بالإنسان الموت يتذكَّر ويبدو له ما كان يستولي على همه.

يروى أنَّ رجلاً عشق شابًّا واشتدَّ كَلَفُهُ به، وتمكن حبه من قلبه حتى مرض ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناسُ فَفَرِحَ واشتد فرحه وانجلى غمّه،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

وجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له، فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي بعض الطريق ورجع.. فلمَّا سمع البائس، أُسقط في يده وعاد إلى أشدَّ مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

يـا سَلْـمُ يـا راحـةَ العليـلِ ويـا شِفَـا المُـدْنَـفِ النَّحيـلِ
رضـاك أشهـى إلـى فـؤادِي مِـنْ رحمـةِ الخـالـقِ الجليـلِ

فقيل له: يا فلان، اتق الله. فقال: قد كان، فما أن جاوز بابَ داره حتى سمع صيحة الموت.

وآخر: كان واقفاً إزاء داره، فمرَّت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حَمَّامِ مِنْجَاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلمَّا علمت بالأمر، أظهرَتْ له البشرى والفرح وقالت: يصلُحُ أن يكون معنا ما يطيبُ به عيشنا وتَقَرُّ به عيوننا، فخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت، فهام الرجلُ وأكثَرَ الذكر لها، وجعل يمشي في الطريق وهو يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد تَعِبَتْ كيف الطريقُ إلى حَمَّامِ مِنْجَابِ؟!

فبينما هو يوماً يقول ذلك، أجابته جاريةٌ من طاق:

هلا جَعَلْتَ سريعاً إذْ ظَفِرْتَ بها حِرْزاً على الدارِ أو قُفْلاً على البابِ!

فازداد هيمانه بها، حتى حضرته الوفاة، فكان آخر كلامه من الدنيا هذا البيت، ولم ينطق بالشهادة!! أرأيت كيف تفعل الشهوة بصاحبها؟!

والنماذج على ذلك كثيرة لا يتسع المقام لسردها؛ فاحذر أيها الأخ وأيتها الأخت ـ حماكما الله ـ من هذا المصير.

٤ ـ أنها تخرج محبة الله ومحبة ما يحبه الله من قلب العبد:

إن قلب العبد وعاء لا يخلو من محبوب يُرجى ويُخاف فواته، والضدان لا يجتمعان: فإن امتلأ قلبك بحب الشهوات، فهل تظن أنه سيبقى فيه مكان لمحبة الله ومحبة ما يحبه سبحانه؟

إنه خيارٌ واحد، فحدِّدْ مصيرك واخترْ طريقك، وإذا أردت محبة الله ولذة الإيمان، فلن تحصُلَ لك حتى تُطَهِّر قلبك من محبة ما يسخطه، وإن تعلَّقت بغير الله، فأنَّى لك لذةُ الإيمان وحلاوة الطاعة؟!

إن الذين تستغرقهم الشهوة المحرمة يتحوَّلون إلى عبيد لها تأمرهم فيطيعون، وتنهاهم فيخضعون، وها هو أحدهم وقد أحب امرأة يُقال لها: عَزَّة، يقول فيها:

رهبانُ مَدْيَنَ والذين عهدتُهم ... يبكون مِنْ حَذَرِ العقابِ قعودَا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثَها ... خَـرُّوا لِعَـزَّةَ ركعًـا وسجـودَا

سبحان الله! ما أكفَرَ هذا الكلامَ، وما أشدَّ شركه!!

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفاً حال أمثال هؤلاء: «فلو خيِّر بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاءُ معشوقه أحبُّ إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، يُسخط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدِّم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه

من ماله ـ إن جعل له ـ كلَّ رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لُبُّهُ وقَلْبُه، وهَمُّهُ ووقْتُه، وخالصُ مالِه، وربُّه على الفضلة، قد اتخذه وراءه ظِهْرِيًّا، وصار لذكره نَسِيًّا، إن قام في الصلاة فلسانُهُ يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة ووجه قلبه إلى المعشوق. ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على الجَمْر من ثقلها عليه، وتكلُّفه لفعلها، فإذا جاءتْ خدمة المعشوق أقبلَ عليها بقلبه وبدنه فرحاً بها، خفيفةً على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها»[١].

وانظر في أشعار العاشقين والعاشقات؛ لترى الأدلة على ذلك، واقرأ ما يكتبه هؤلاء من أبيات وعبارات، وانظر أحوال كثير منهم، وكيف جلب عليهم هذا العشقُ الشقاءَ والنكد، **فهل يستحق هذا الهوى والغرام أن تختصَرَ الحياةُ كلُّها فيه؟!**

٥ ـ مخاطر الأمراض والأوجاع في الدنيا:

إن مِن سُنَّة الله عزَّ وجل معاقبةَ مَنْ عصاه في الدنيا قبل الآخرة، ولِمَنْ يأتون الفواحش عقوبةٌ من نوعٍ خاص؛ عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . **لَمْ تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعْلِنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضَوْا**»[٢].

وهذه السنة مما تحقَّق في العالم، فأهلُ الفجور والفواحش

---

(١) باختصار من «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٥١-١٥٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٦).

مهدَّدون بالزُّهري والسيلان، والهِرْبِس والإيدز؛ أعاذنا الله منها جميعاً، وإليك شيئاً من الإحصائيات المتعلِّقة بطاعون العصر (الإيدز):

يبلغ الذين ينقل إليهم المرض يوميًّا على مستوى العالم: عَشَرَةَ آلاف شخص، وفي كلِّ دقيقة يصاب ستة أشخاص دون الخامسة بعدوى الإيدز، وفي عام ٢٠٠٠م لقي ما يقارب من ثلاثة ملايين شخص من حاملي المرض مصرعهم، وقد تسبب الإيدز في إضافة ١٣,٢ مليون طفل إلى قائمة الأيتام. ويقدَّر عدد المصابين به في عام ٢٠٠٠م بـ ٣٤,٤ مليون، وآخر الإحصاءات تقدِّرهم الآن بخمسين مليونًا ثلثهم من الشباب من بين ١٥-٢٤ سنة[١].

بقي أن تعلم أن ٧٣٪ من المصابين بهذا المرض هم من الذين يعملون عمل قوم لوط.

وهذا أحد المصابين به وهو السينمائي الأمريكي روك هدسون يقول وهو على فراش الموت: «أنا بانتظار القدر، إنه يَدُقُّ بابي، أستمع إلى صوته من أعماقي، لم أكنْ أَوَدُّ أن أتعذَّب هكذا، وأنا في هذا المرض ـ الإيدز سرطان العصر ـ ورغم ابتسامات الكثيرين وتهنئتي بالتماثل للشفاء إلا أنني على موعد مع القدر؛ إنه يدق بابي في اللحظات الأخيرة»[٢].

---

(١) انظر: «مرصد الأرقام» (١٤٢٢هـ)، (ملحق سنوي لمجلة البيان).
(٢) «غضب الله تعالى يلاحق المتمردين على الفطرة» لفؤاد الرفاعي.

وهذا أحد الشباب كان يعاشر إحدى الفتيات بالحرام خارج بلاده، فلما أراد أن يعود وجد ورقةً قد كتبَتْ عليها صاحبته: (مرحبًا بك عضوًا في نادي الإيدز)؛ فضاق عليه الأمر وصعق.

يعودون من الإجازات، فيعانون من الأوجاع والالتهابات، فيعملون التحليلات، فيكتشفون النتائج الفاجعات، فيعتزلهم الناس أشدَّ من اعتزال الأجرب، نعوذ بالله من هذا المسلك وهذا المصير!

٦ ـ الجزاء من جنس العمل:

إنها قاعدةٌ شرعية، وسُنَّةٌ لا تتخلَّف: أن يجزي الله العامل من جنس عمله، أتظنُّ يا أخي أنَّ مَنْ يطلق العنان لشهوته دون وازع أو ضابط، أتظنُّه يسلم من عقوبة الله؟! لا!

فجزء يسير من عقوبته: أن تنطبق عليه هذه القاعدة؛ اسمع ما يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

عِفُّوا تَعِفَّ نساؤكم في المَحْرَمِ ... وتجنبوا ما لا يليقُ بمسلمِ
إنَّ الزِّنَىٰ دَيْنٌ فإنْ أقْرَضْتَهُ ... كان الوفَا من أهلِ بيتِكَ فاعْلَمِ
مَنْ يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجدارِهِ ... إنْ كنتَ يا هذا لبيبًا فافْهَمِ

وفي رواية:

يا هاتكًا حُرَمَ الرِّجَالِ وقاطعًا ... سُبُلَ المَودَّة عِشْتَ غيرَ مُكَرَّمِ
لو كُنْتَ حُرًّا مِن سلالةِ ماجِدٍ ... مَا كُنْتَ هَتَّاكًا لحُرمةِ مُسْلِمِ
مَنْ يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجدارِهِ ... إنْ كنتَ يا هذا لبيبًا فافْهَمِ

إذَنْ: مَن يتجرَّأ على انتهاك عرض الآخرين مُعَرَّضٌ أن يرى ذلك في ابنته أو أخته، ومَن لا يبالي بمحارم الله قد تخونه زوجته،

ومَن تتجرَّأ على ذلك مُعرَّضةٌ أن تراه في بناتها ونسلها ـ جنبنا الله كل مكروه ـ فحافظ أخي وأختي على العِرْض، واعلموا أن المرء قد يجازىٰ من جنس عمله، فيقع لأهله ما أوقعه بالناس.

قبح الفاحشة، وعظيم ضررها:

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فصل جامع لمضار الزنى:

«والزنى يجمع خلالَ الشرِّ كلَّها من: قلة الدين، وذَهَاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغَيْرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غَيْرة تامَّة على أهله؛ فالغدرُ والكذب، والخيانة وقلة الحياء، وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب: مِنْ شعبه وموجباته.

ومن موجباته: غضبُ الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرَّض رجل إلى ملك من الملوك بذلك، لقابله أسوأ مقابلة.

ومنها: سواد الوجه وظلمته، **وما يعلوه** من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين.

ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها: الفقر اللازم؛ وفي أثر يقول الله تعالى: «**أنا اللهُ مُهْلِكُ الطُّغاة، ومُفْقِرُ الزُّناة**».

ومنها: أنه يُذْهِب حُرْمة فاعله، ويسقطه من طاعة ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسم العِفَّة والبر والعدالة، ويتصف بعكسها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن كما في «الصحيحَيْن»، عن النبي أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان، وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث؟ فخطَّ دائرة في الأرض وقال: هذه دائرةُ الإيمان، ثم خطَّ دائرةً أخرى خارجة عنها وقال: هذه دائرةُ الإسلام، فإذا زنى العبدُ، خرج من هذه، ولم يخرج من هذه.

ومنها: أنَّه يعرض نفسه لسكنى التَّنُّور الذي رأى النبي فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنَّه يفارقه الوصف الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦]، وقد حرَّم الله الجنة على كلِّ خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم. والزناة مِنْ أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يومُ القيامة، ميَّز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض، ثم ألقاه وألقى أهله

في جهنم؛ فلا يدخلُ النارَ طيبٌ، ولا يدخلُ الجنةَ خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أنس، ومَنْ جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومَن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقَرُ شيء في نفوسهم وعيونهم؛ بخلاف العفيف: فإنه يرزق المهابةَ والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحد على حُرْمته ولا على ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوحُ عليه يَشَمُّهَا كلُّ ذي قلب سليم، تفوح مِنْ فيه وجسده، ولولا اشتراكُ الناس في هذه الرائحة، لفاحت من صاحبها ونادت عليه، ولكن كما قيل:

كُلٌّ به مثلُ ما بي غيرَ أَنَّهُمُ ... مِنْ غَيْرَةٍ بَعْضُهُمْ للبعضِ عُذَّالُ

ومنها: ضيق الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم؛ فإن مَن طلب لذة العيش وطيبه بما حرَّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده؛ فإنَّ ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قطُّ، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش، لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعافُ أضعافِ ما حصل له؛ دَعْ رِبْحَ العاقبة، والفوزَ بثواب الله وكرامته!

ومنها: أنه يعرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد عاقَبَ لابسَ الحرير في الدنيا بحرمانه لُبْسَهُ يوم القيامة، وشاربَ الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك مَن تمتَّع بالصور المحرَّمة في الدنيا، بل كُلُّ ما ناله العبد في الدنيا: فإنْ توسَّع في حلاله، ضيِّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّع فيه، وإنْ ناله من حرام فاته نظيرُهُ يوم القيامة.

ومنها: أن الزنى يجرِّئه على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وكسب الحرام وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قَسْرًا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري؛ فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها، فهي محفوفة بِجُنْد من المعاصي قبلها وجند بعدها، وهي أجلبُ شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها، عزَّ على الناصحين استنقاذه، وأعيا الأطباءَ دواؤه؛ فأسيرها لا يُفْدَى، وقتيلها لا يودى، وقد وكَّلها الله سبحانه بزوال النعم؛ فإذا ابتلي بها عبد فليودِّع نعم الله؛ فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]»[١].

الشهوات في هذا الزمان:

الإباحية في الحياة الغربية:

لقد ذكرت وزارة العدل الأمريكية في دراسة لها[٢]، أن تجارة الدعارة والإباحية الخلقية تجارةٌ رائجة جِدًّا يبلغ رأس مالها ثمانية مليارات دولار، ولها أواصر وثيقة تربطها بالجريمة المنظمة. وأنَّ تجارة الدعارة هذه تشمل وسائل عديدة كالكتب والمجلات وأشرطة الفيديو والقنوات الفضائية الإباحية والإنترنت.

وتفيد إحصاءات الاستخبارات الأمريكية (FBI): أن تجارة الدعارة هي ثالثُ أكبر مصدر دخل للجريمة المنظمة بعد المخدرات والقمار[٣]؛ حيث إن بأيديهم ٨٥٪ من أرباح المجلات والأفلام الإباحية[٤].

وهنالك في الوقت الحاضر في أمريكا وحدها أكثر من (٩٠٠) دار سينما متخصِّصة بالأفلام الإباحية، وأكثر من (١٥٠٠٠) مكتبة ومحل فيديو تتاجر بأفلام ومجلات إباحية. وهذا العدد يفوق

---

(١) «روضة المحبين» (٣٦٠-٣٦٣).

(٢) Report of the Attorney General's Task Force of Family Violence, U.S. Department of Justice, Washington, D.C.

(٣) Federal Bureau of Investigation, reported in "Talking Points: Important Facts About Pornography, Take Action Manual, National Coalition for the Protection of Children and Families, p.8.

(٤) American Family Association, "Outreach: Facts About Pornography".

حتى عدد مطاعم ماكدونالد بنسبة ثلاثة أضعاف[١]. ولقد كانت أمريكا في الماضي تحاربُ إلى درجةٍ كبيرة انتشارَ الإباحية في مجتمعها بفرض بعض الأنظمة والقوانين، ولكنْ من الملاحظ في هذا العصر أن المعارضين لانتشار الإباحية بدؤوا يخسرون هذه الحرب حيث نجحت الإستوديوهات بتخفيف المراقبة على الأفلام وتغيير مفهوم الإباحية لدى المقيِّمين؛ فأصبحت الأفلام التي كانت تندرج تحت بند الأفلام الإباحية (X) قبل قرن، يُعاد تقييمها اليوم وإدراجها تحت بند (R) الأخف. كما تم إنشاء فئات أخرى بينية كفئة (NC-17) للهدف نفسه. ولقد تم بنجاح مؤخرًا في أمريكا قلب وإلغاء قانون «العفة في الاتصالات» (Communications Decency Act of 1996)؛ ليتمكَّن الناس من الاستمرار في أعمال الإباحية دون أي قيود قانونية.

ومن المعلوم؛ أن أمريكا هي أولى دول العالم في إنتاج المواد الإباحية؛ فهي تصدر سنويًا (١٥٠) مجلة من هذا النوع أو (٨٠٠٠) عددٍ سنويًا[٢]. وتجارةُ تأجير الأفلام الإباحية قد زادت من (٧٥) مليون سنة (١٩٨٥)، إلى (٦٦٥) مليون سنة (١٩٩٦).

ولقد عَرَفَ أهلُ هذه التجارة في السابق: أن هنالك فئة من

---

(١) "Effect of Pornography on Women and Children" U.S. Senate Judiciary Committee, Subcommittee on Juvenile Justics, 98th Congress, 2nd Session, 1984.

(٢) Schlosser, Eric, "Business of Pornography", U.S. News & World Report, February 10, 1997.

الناس قد تطاوعهم نفوسهم في الخوض في هذه الأمور لولا خوفُ العار من أن يراهم الناس وهم يَدْخُلون أمثالَ هذه المتاجر أو دور السينما؛ لذا أخذوا في تسهيل هذه الأمور قدر المستطاع كالسماح للناس باقتناء هذه الموادِّ عن طريق البريد. واستكمالاً لهذه الجهود (وبعد ضغوط من الحكومة) قاموا بتغليف هذه المواد بورق بُنِّيٍّ (Wrapper Plain Brown) يخفي محتوياتها قبل الإرسال، ومع ذلك أصبح الناس يعرفون محتويات أمثال هذه الرسائل، فكان ذلك رادعًا للبعض ممن لازالت فطرته سليمة ويخشى العار.

لاحظ تجار الدعارة هذه العوامل؛ فأصبح من اللازم إيجاد طرقٍ لتوصيل هذه الموادِّ إلى منازل الناس بطريقة مباشرة وخفية. ومن هذا المنطلق: تم الاستفادة من البث المباشر والهاتف وشبكة الإنترنت، وقد تمثِّل شبكة الإنترنت في الوقت الحاضر أكثر هذه الطرق نجاحًا في هذا الصدد؛ حيث إن صفحات النسيج العالمي المتعلقة بالدعارة تمثل ـ بلا منافس ـ أشد الصفحات إقبالاً في كل العالم.

حجم الإقبال على المواقع الإباحية في عالم الإنترنت:

إحدى الشركات الإباحية تزعم بأن (٤,٧) مليون زائر يزور صفحاتهم في الأسبوع الواحد[١]، وقامت بعض الشركات بدراسة عدد الزوار لصفحات الدعارة والإباحية في الإنترنت؛ فوجدت

---

(١) G.A. Servi, "Sexy F Seeks Hot M": A Mother's Tale Discovering a Child's X-Rated E-Mail, Newsweek, July 3, 1995, 51.

شركة (Web Side Story) أن بعض هذه الصفحات الإباحية يزورها (٢٨٠٠٣٤) مائتان وثمانون ألفًا وأربعة وثلاثون زائرًا في اليوم الواحد، وهناك أكثرُ من مائة صفحة مشابهة تستقبل أكثر من (٢٠٠٠٠) عشرين ألف زائر يوميًّا، وأكثر من (٢٠٠٠) صفحة مشابهة تستقبل أكثر من (١٤٠٠) زائر يوميًّا. وإن صفحة واحدة فقط من هذه الصفحات قد استقبلت خلال سنتين (٤٣٦١٣٥٠٨) ثلاثة وأربعين مليونًا وستمائة وثلاثة عشَرَ ألفًا وخمسمائة وثمانية من الزوَّار. وإنَّ واحدة من هذه الجهات تزعم أن لديها أكثر من ثلاثمائة ألف صورة خليعة تم توزيعها أكثر من مليار مرة. ولقد قام باحثون في جامعة كارنيجي مليون بإجراء دراسة إحصائية على (٩١٧٤١٠) تسعمائة وسبعة عشر ألفًا وأربعمائة وعشر صور، استرجعت (٨,٥) مليون مرة من (٢٠٠٠) مدينة في (٤٠) دولة؛ فوجدوا أن نصف الصور المستعادة من الإنترنت هي صور إباحية وأن (٨٣,٥٪) من الصور المتداولة في المجموعات الإخبارية[1] هي صورٌ إباحية[2].

وفي عملية إحصاء أجرتها مؤسسة زوجبي (Zogby) في مارس عام (٢٠٠٠)، وجد أن أكثر من (٢٠٪) من سكان أمريكا يزورون الصفحات الإباحية، وأكثر من ثمانين في المائة من رواد الشبكة

---

(١) There are about 14.000 Usenet newsgroups around the world today.

(٢) Rimm, Marty, Marketing Pornography on the Information Superhighway, Georgetown Law Journal, Issue 5, Volume 83.

العنكبوتية يدخلون إلى مواقع الحرام، ويقول الباحث ستيف واترز[١]: إنَّه غالبًا ما تبدأ هذه العملية بفضول بريء، ثم تتطور بعد ذلك إلى إدمان مع عواقب وخيمة؛ كإفساد العلاقات الزوجية، أو تبعات شرٍّ من ذلك.

وقد وجد التجار صعوبة فائقة في جمع الأموال عن طريق صفحات النسيج العالمي إلا في شريحة واحدة، وهي شريحة صفحات الدعارة فإنها تجارة مربحة جدًّا[٢]، ويقبل الناس عليها بكثرة، ولو اضطروا لدفع الأموال الطائلة مقابل الحصول على هذه الخدمة. وفي سنة (١٩٩٩) بلغت مجموعة مشتريات موادِّ الدعارة في الإنترنت (٨٪) من التجارة الإلكترونية، والبالغ دخلها (١٨) مليار دولار؛ كما بلغت مجموعة الأموال المنفقة على الدخول على الصفحات الإباحية (٩٧٠) مليون دولار، ويتوقع أن ترتفع إلى (٣) مليار دولار في عام (٢٠٠٣)[٣]. وهذه الصفحات تتكاثر بشكل مَهُولٍ تبلغ مئات الصفحات الإباحية الجديدة في الأسبوع الواحد، كثير منها تُؤَمِّن هذه الخدمة مجانًا.

ولقد صرَّحت وزارة العدل الأمريكية قائلة: «لم يسبق في فترة من تاريخ وسائل الإعلام بأمريكا: أن تفشَّى مثل هذا العدد الهائل الحالي من مواد الدعارة أمام هذه الكثرة من الأطفال، في

---

(١) Steve Watters, an Internet research analyst at Focus on the Family.
(٢) C-Net; 4/28/99.
(٣) U.S. News 7 World Report, 3/27/2000.

هذه الكثرة، من البيوت من غير أي قيود»[١].

كما تفيد الإحصاءات بأن (٦٣٪) من المراهقين الذين يرتادون صفحات وصور الدعارة لا يدري أولياء أمورهم طبيعة ما يتصفَّحونه على الإنترنت[٢] علمًا بأن الدراسات تفيد أن أكثر مستخدمي الموادِّ الإباحية تتراوح أعمارهم ما بين (١٢) و(١٧) سنة[٣]. والصفحات الإباحية تمثِّل بلا منافس أكثر فئات صفحات الإنترنت بحثًا وطلبًا[٤].

محاولة تصدير الإباحية بدعوى الحرية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩، ٢٠].

أما في زماننا: فإنَّ أهل الغرب بقيمهم الفاسدة، وأمراضهم الخبيثة، ومبادئهم الذميمة: لم يكتفوا بإفشاء الرذائل والمنكرات، ودواعي غضب الجبار بينهم؛ ولكن تمادى بهم الحال إلى محاولة تصدير هذه المصائب والأمراض إلى دول الإسلام؛ فنجد جمعية «مراقبة حقوق الإنسان» (Watch Human Rights) مثلاً تذم وتنكر بشدة

---

(١) U.S. Department of Justice Post Hearing Memorandum of Points and Authorities, at 1, ACLU vs. Reno, 929 (1996).

(٢) Uankelovich Partners Study, September 1999.

(٣) Attorney General's Commission of Pornography, 1986.

(٤) Dr. Robert Weiss, Sexual Recovery zInstitute, Washington Times 1/26/2000.

أيَّ محاولات لدول الخليج العربي لحجب الإنترنت ويدعونها إلى «الانفتاح والحرية»[١].

أما القنوات الفضائية الإباحية التي تعرض الأفلام الجنسية والأغاني الجنسية، وتعرض الدعايات الجنسية والاتصالات الهاتفية المباشرة المصورة، وما يسمى بخطوط الصداقة، والغرف الجنسية، وأفلام محاكاة الواقع الجنسية بالمناظير، والغرف المظلمة، والمسارح وحفلات الفنادق، وغرف التأجير والشقق المفروشة، وسفن الدعارة العائمة: **فشيءٌ هائل**، وشر مستطير؛ زِدْ على ذلك أسطوانات الليزر المدمجة والمجلات، وما يتبادله الطلاب في المدارس، وما يُرسل في البريد الإلكتروني والنكات القذرة ورسائل الجَوَّال المهيجة للغريزة، والكلام الفاحش وغير ذلك: صار البلاء بها عامًّا، وما حول الشباب والصغار والكبار جنسٌ وعوراتٌ مكشوفة، وأعمالٌ محرَّمة، وأوحال وقاذورات ومستنقعات، وعفَنٌ ونتن، وأشياءُ تدعو أصحاب الفطر السليمة للتقيُّؤ، وتُمْرِضهم وتصيبهم بالهمِّ والغمّ لما آل إليه الأمر وصار إليه الحال؛ والله المستعان، وإليه المشتكى وعليه التُّكْلان.

وهنا يأتي السؤال الكبير: كيف الخلاص من هذا الفساد الهائل والحرام الخطير والشرِّ المستطير؟

الجواب: أن شريعتنا وإسلامنا وديننا الحنيف فيه العلاجُ لكلِّ

---

(١) http://www.hrw.org/advocacy/internet/mena/

مشكلة ومرض ومعضلة، وهذه نصوص الكتاب والسُّنَّة وأقوال أهل العلم.

فإليك الآن هذه القواعدَ في التعامل مع الشهوة حتى تجتنب شرَّها، وتخفِّف من وطأتها، وتتلافى إفسادها لقلبك وتقيك الوقوع في الحرام:

القاعدة الأولى: قل: معاذ الله، إني أخاف الله:

إن الإيمان بالله والخوف منه صمام الأمان، والعاصم للعبد من مواقعة الحرام والانسياق وراء شهوة عارضة.

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فأعاذه الله وصرف عنه كيدهنّ.

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ يقولها بعضُ مَنْ يستظل بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله؛ «**ورجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله**».

قال الحافظ ابن حجر: «والظاهر أنه يقولُ ذلك بلسانه؛ إما ليزجرها عن الفاحشة أو ليعتذر إليها، ويحتمل أن يقوله بقلبه، قاله عياض، قال القرطبي: إنما يصدر ذلك عن شدة خوف من الله تعالى، ومتين تقوى وحياء»[١].

ولا تصدر مثل هذه الكلمة وما كان من جنسها ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ في ذلك الموطن، ولا يكون التذكير بالله رادعًا، إلا لمن راقبه

---

(١) حديث رقم (٦٦٠).

سبحانه وتعالى في سر أمره وعلانيته، وخافه في الغيب والشهادة؛ يقول تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

فالمؤمن إذا تربَّى على مراقبة الله ومطالعة أسرار أسمائه وصفاته؛ كالعليم والسميع والبصير، والرقيب والشهيد والحسيب، والحفيظ والمحيط والمهيمن: أثمر ذلك خوفًا منه سبحانه في السر والعلن، وانتهاءً عن معصية الله، وصدودًا عن داعي الشهوة الذي يَؤُزُّ كثيرًا من العباد إلى الحرام أزًّا.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في معنى المهيمن: «المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا»[(١)].

وليتذكر العبد بعضاً مما ورد في كتاب الله تعالى في هذا الشأن من الآيات:

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[البقرة:٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

---

(١) تفسير سورة الحشر، آية (٢٣).

وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

وإذا خَلَوْتَ بِرِيبةٍ في ظُلْمَةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى العصيانِ
فاستَحْيِ من نظرِ الإله وقُلْ لها إن الذي خلقَ الظلامَ يراني

أيها المسلم:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خلوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ ساعةً ولا أنَّ ما تُخفي عليه يغيبُ

فالمؤمن إذا تربَّىٰ على معاني هذه الآيات، وعمل بمقتضاها فإنه يصبح إنسانًا سويًّا، وينشأ شابًّا تقيًّا نقيًّا، لا تستهويه مادة، ولا تستعبده شهوة، ولا يتسلَّط عليه الشيطان، ولا تعمل النفس الأمَّارة بالسوء عملها فيه، بل يصرخ إن دعته الشهوة: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾، وإذا وسوس له الشيطان صاح فيه: «إنه ليس لك عليَّ سلطان»، وإذا زيَّن له قرناء السوء طريقَ الفاحشة والمنكر، أسكتهم بقوله: «لا أبتغي الجاهلين».

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن فائدة قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ ﴾ [يوسف: ٢٢]: إنما أعطاه ذلك إبَّان غلبة الشهوة؛ لتكون له سبباً للعصمة. اهـ.

إن هذا العبد المتربِّي على الخوف من الله جلَّ وعلا هو الحقيق بأن تؤثِّر فيه كلمة «اتق الله» إنْ قارب يومًا الحرام. وتأمَّل في حال أحد الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، يقول:

«اللهمَّ كانت لي بنت عم كانتْ أحبَّ الناس إليَّ، فأردتها عن نفسها، فامتنعَتْ مني حتى ألمَّتْ بها سَنَةٌ من السنين، فجاءتني

فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلِّيَ بيني وبين نفسها فَفَعَلَتْ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها قالت: لا أُحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانْصَرَفْتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ وتركْتُ الذهب الذي أعطيتها، اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُج عنا ما نحن فيه فانفرجَتِ الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»[١].

فتأمَّل حال هذا الرجل كيف قارَبَ الحرامَ هذه المقاربة حتى قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته، وقدر عليها، فأزالته كلمةُ «اتق الله» عن مكانه، فقام عنها وهي أحبُّ الناس إليه، وترك لها المال.

ما الذي أثَّر فيه هذا التأثير؟! إنه الإيمان بالله، والخوف منه سبحانه ومراقبته!!

لا خيرَ فيمنْ لا يراقبُ ربَّهُ   عندَ الهوى ويخافُه إيمانَا
حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الهوى فأخو التُّقَى   يخشى إذا وافى المعادَ هَوَانَا

ومتى أصلح العبد قلبه وعَمَرَهُ بتقوى الله، دخل في زمرة عباد الله المخلصين، الذين يحفظهم الله سبحانه ويصرف عنهم السوء والفحشاء؛ يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. والشيطان ممنوعٌ من غوايتهم لا تعمل فيهم حِيَلُه وتلبيساته؛ يقول تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

إذن: مَنْ أراد النجاة من أَسْر الشهوة، فعليه أن يربي نفسه تربية إيمانية متكاملة يُضَمِّنها معاني التقوى والمراقبة، والخوف والرجاء والمحبة وغيرها من المعاني الإيمانية؛ ويحصُلُ هذا بإدمان محاسبة النفس ومساءلتها ومعاتبتها؛ فيتفقد قلبه ويفتش في إيمانه ويستعرض عمله:

ما نصيب الذكر من يومه؟

ما نصيب القرآن من قراءته؟

ما نصيب أشرطة الرقائق من سماعاته؟

القاعدة الثانية: احذر خائنة الأعين:

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

قال ابن عباس: «هو الرجلُ يدخُلُ على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به، فإذا غَفَلوا لحَظَ إليها، فإذا فَطِنوا غَضَّ بصره عنها، فإذا غفلوا لحَظَ فإذا فطنوا غض».

قال سفيان الثوري: «الرجلُ يكون في المجلس في القوم يستَرِقُ النظر إلى المرأة تمرُّ بهم، فإذا رأوه ينظر إليها اتقاهم فلم ينظر، وإن غفلوا نظر، هذا ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ قال: ما يجد في نفسه من الشهوة».

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان»: «فيه

الوعيد لمن يخونُ بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له».

والعبد موقوف بين يدي الله، مسؤول عن حواسِّه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

إنها النظرة.. سهم إبليس المسموم.. ورائد الشهوة، النظر المحرَّم يُثمر في القلب خواطر سيئة رديئة، ثم تتطوَّر تلك الخواطر إلى فكرة، ثم إلى شهوة وهو بيتُ القصيد، ثم إلى إرادة فعزيمة ففعل للحرام ولابد.. وتأمل في هذه الآية التي ربطت بين أول خطوات الحرام وآخرها؛ يقول تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يقول ابن كثير في تفسيره: «هذا أمرُ الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم؛ فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعًا».

ويقول القاسمي في تفسيره: «سر تقديم غض البصر على حفظ الفرج هو أن النظر بريدُ الزنى، ورائدُ الفجور».

يقول طبيب القلوب ابن قيم الجوزية: «والنظر أصلُ عامَّة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإنَّ النظرة تولِّد خطرة، ثم تولِّد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة؛ فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع منه مانع

وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده؛ ولهذا قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مَبْدَاها من النظر ... ومعظمُ النار من مستَصْغَرِ الشَّرَرِ
كم نظرةٍ بلغَتْ في قلب صاحبها ... كمبلغِ السهم بين القوس والوَتَرِ
والعبدُ ما دام ذا طَرْفٍ يقلِّبه ... في أعين الغِيدِ موقوفٌ على الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ ما ضرَّ مهجتَهُ ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضرَرِ

ومن آفاته: أنه يورث الحسرات والزفرات والحُرُقات، فيرى العبدُ ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه؛ وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قُدْرة لك عليه؛ قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلْتَ طرفَكَ رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتْكَ المَنَاظِرُ
رأيتَ الذي لا كلَّه أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضِهِ أنتَ صابرُ!

«فترى المرأةَ المتزوِّجة مثلاً في الشارع تقلِّبُ فيها النَّظَرَ؛ فيتعلَّق القلب بها؛ فلا يستطيع الانصراف عنها، ولا التقدُّم لخطبتها والزواج منها؛ ولذلك يسعى كثيرٌ من الفُسَّاق إلى تطليق مَنْ عشقوه من النساء من أزواجهنَّ».

ثم مرسلُ النظرات يقع صريعًا لها:

يا ناظرًا ما أقلعَتْ لَحَظَاتُهُ ... حتى تشحَّطَ بينهنَّ قتيلاَ

ومن العجب: أنَّ لحظة الناظر سهمٌ لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوَّأ مكانًا من قلب الناظر.

وقال ابن القيم:

يا راميًا بِسِهَامِ اللحظِ مجتهدًا أنتَ القتيلُ بما ترمي فلا تُصِبِ
وباعثَ الطرفِ يرتادُ الشِّفَاءَ له احبسْ رسولَكَ لا يأتيك بالعَطَبِ

وأعجبُ من ذلك: أن النظرة تجرحُ القلب جرحًا فيتبعها جرح على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها:

مـازلـتَ تُتْبِـعُ نظـرةً فـي نظـرةٍ فـي إثْـرِ كـلِّ مليحـةٍ ومليـحِ
وتَظُنُّ ذاك دواءَ جُرْحِكَ وَهْوَ في الـ ـتحقيق تجـريـحٌ علـى تجـريـحِ
فذبحْتَ طرفَكَ باللِّحاظِ وبالبكا فـالقلـبُ منـك ذبيـحٌ ايُّ ذبيـحِ

وقد قيل: إن حبس اللحظات، أيسر من دوام الحسرات»[1].

وتأمل في هذا الحديث الذي ربط بين خيانة العين والوقوع في الفواحش؛ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الله كَتَبَ على ابن آدمَ حظَّه من الزنى أدرَكَ ذلك لا محالة، فَزِنَى العين النظر، وزنى اللسان المنطق، والنَّفسُ تَمَنَّى وتَشْتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّق ذلك كلَّه ويُكَذِّبُهُ**»[2].

وتأمَّل التقبيح بوصف النظر للحرام بأنه زنى، لا شك أن قلب المؤمن ينفرُ من هذا الوصف أشدَّ النفور.

إن حال مَن ينظر للحرام كحال الذي يشرب من ماء البحر المالح أتراه يَرْوَىٰ؟ لا، بل لا يزدادُ مع الشرب إلا عطشًا، فهو بهذا النظر لا يزيد شهوته إلا تأجُّجًا وشدة.

---

(١) باختصار وتصرف من كتاب «الداء والدواء» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣).

وكنتَ متى أرسلْتَ طرفَكَ رائدًا لقلبـكَ يـومًـا أتعبتْـكَ المنـاظـرُ
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ!

يقول ابن الجوزي: «فاحذَرْ ـ يا أخي وقاك الله ـ من شر النظر، فكم قد أهلك من عابد، وفسَخَ عزم زاهد، فاحذَرْ من النظر فإنه سببُ الآفات، غير أنَّ علاجه في بدايته قريب وسهل، فإذا كرِّر تمكَّن الشر فصعُبَ علاجه».

إن النظرة كأسٌ مسكر، وسكره العشق، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فَسَكْران الخمر يُفِيق، وسكران العشق أنَّىٰ يفيق!!

سُكْرانِ سُكْرُ هَوًى وسكرُ مُدامةٍ فمتى إفاقةُ مَنْ به سُكْرانِ؟!

فاحذر أخي سهمَ إبليس؛ فإنه إن لم يقتلك جرَحَ قلبك، وتكاد الجروح تكثر عليك حتى تصرعك فتَهْلِك.

أمثلة على خيانة العين الخفية التي يستهين بها الناس:

١ ـ المَجَلَّات في المحلات التجارية.

٢ ـ صور النساء في الجرائد والكتب.

٣ ـ الإنترنت.

٤ ـ الخادمة في البيت.

٥ ـ تكرار النظر.

عن جرير بن عبدالله قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفُجَاءَةِ؟ فأمرني أن أصرف بصري»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

قال النووي: «الفُجَاءَة والفَجْأَة: هي البَغْتَة. ومعنى نظر الفَجْأَة: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد؛ فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال، فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أَثِمَ لهذا الحديث؛ فإنه ﷺ أَمَرَه بأن يصرف بصره مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

وعن بُرَيْدَة قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**يا عليُّ، لا تُتْبِـعِ النظرة النظرة؛ فإنَّ لك الأولى، وليست لك الآخرة**»[1].

قال العظيم آبادي: «**لا تُتْبِـعِ النَّظْرةَ النَّظْرة**»: من الإتْبَاع، أي: لا تُعْقِبْهَا إيَّاها ولا تجعل أخرى بعد الأولى؛ «**فإن لك الأولى**»، أي: النظرةَ الأولى إذا كانتْ من غير قصد، «**وليست لك الآخرة**»، أي: النظرةُ الآخرة؛ لأنها باختيارك فتكون عليك».

وبهذا يظهر لك فسادُ قول بعض الهازلين اللاعبين بأنه يجوز له استدامة النظرة الأولى ما لم ترمش العين!!

وليحذر العاصي المُصِرُّ على المعاصي من بطش الله وأخذه الأليم الشديد؛ فالذي أعطى الحواسَّ قادرٌ على المعاقبة بسلبها والحرمان منها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]؛ فالبصرُ نعمة من الرب؛ فينبغي على العبد

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٨٨١).

أن يخشى الرب في بصره إن صرفها في معصية الله من عقوبة الأخذ.

وقد ذكر ابن القيم جملةً من الفوائد في غَضِّ البصر عن الحرام، ومنها:

١ ـ امتثال أمر الرب جل وعلا الذي هو نهايةُ سعادة العبد دنيا وأخرى.

٢ ـ أنه مانع من وصول أثر السهم المسموم إلى قلبه فيهلك.

٣ ـ أنه يورث القلب أُنْسًا بالله، واجتماعَ القلب على الربِّ، ولذَّةً لا يجدها من أطلق بصره في الحرام.

٤ ـ أنه يقوي القلب ويفرحه؛ كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

٥ ـ أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاق البصر يكسبه ظلمة.

٦ ـ أنه يورث العبد الفراسة الصادقة التي يميِّز بها بين الحق والباطل والصدق والكذب.

٧ ـ أنه يورث القلب شجاعة وثباتًا، ويجمع الله لصاحبه سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة.

٨ ـ أنه يسد على الشيطان مدخلاً من مداخله على القلب؛ فإنَّ بوابة القلب الكبرى النظرة.

٩ ـ أنه يفرغ القلب للفكرة الصالحة والاشتغال بها.

١٠ ـ أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجبُ انفعال أحدهما بالآخر، وأنه يصلح بصلاحه، ويفسُدُ بفساده: فإنْ صلحت

منظورات العبد صلح قلبه، وإن فسدت فسد.

وليتذكَّر العبد مِنْ قبلُ ومن بعدُ عظيمَ الأجر في غض البصر؛ فعن عُبَادَة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: **«اضْمَنُوا لي سِتًّا من أنفسكم أضمَنْ لكم الجنة: اصدُقُوا إذا حدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا اؤتُمِنتُم، واحفظوا فروجكم، وغُضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم»**[1].

القاعدة الثالثة: دافع الخطرة:

إن الخاطرة السيئة في القلب خطر.. ومتى انساق العبد معها ولم يدافعها، تطوَّرت إلى فكرةٍ، فَهَمٍّ وإرادةٍ، فعزيمةٍ، فإقدامٍ وفعلٍ للحرام.. فحذار من الاسترسال مع الخطرة؛ بل الواجبُ مدافعتها ومزاحمتها بالخواطر الطيبة.

وتظهر أهمية التفطُّن للخطرات من قول ابن القيم: «وأما الخطراتُ فشأنها أصعب؛ فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولَّد الإرادات والهِمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردَّد على القلب حتى تصير مُنًى باطلة؛ ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأخسُّ الناس همة وأوضعهم نفسًا: مَنْ رضي من الحقائق

---

(١) رواه أحمد (٢١٦٩٥)، وصحَّحه الألباني لغيره في «السلسلة الصحيحة» (١٤٧٠).

بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتحلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوسُ أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوةُ النفس الفارغة التي قد قَنِعَتْ من الوصل بِزَوْرة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال... وهي أضرُّ شيء على الإنسان، وتتولَّد من العجز والكسل، وتولِّد التفريط والإضاعة والحسرة والندامة..

وشرفُ النفس وزكاتها وطهارتها وعلوُّها: بأن تنفي عنها كلَّ خطرة لا حقيقة لها، **ولا ترضى أن يخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها**»[1]. اهـ.

وقال ابن القيم أيضًا: «وأول ما يطرق القلب الخطرة؛ فإنْ دفعها استراح مما بعدها، وإنْ لم يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب، فإنْ بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة، فإنْ عالجها وإلا صارت إرادة، فإنْ عالجها وإلا صارت عزيمة، ومتى وصلَتْ إلى هذه الحال لم يُمْكِنْ دفعها، واقترَنَ بها الفعل ولابد... وحينئذٍ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح، ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله إن ساعد القدر، وأعان التوفيق، وأن الدفع أولى به.

وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازنْ بين فوات هذا المحبوب الأخسِّ المنقطعِ النكدِ المشوبِ بالآلام والهموم، وبين

---

(١) «الداء والدواء» (١/ ١٠٧).

فواتِ المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه ألبتة: لا في قَدْرِهِ ولا في بقائه، وليوازنْ بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخسِّ، وليوازنْ بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى والتنعُّم بحبه وذكره وطاعته، ولذةِ الإقبال على الرذائل والإتيان بالقبائح، وليوازنْ بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عدوه وردِّه خاسئًا ذليلاً، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلاً، وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته، والله المستعان»[١].

والخواطر على ثلاثة أنواع، يقول ابن القيم:

«الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رَحْمانية، وشَيْطانية، ونَفْسانية»[٢].

وفي كلام جامع نفيس في الخواطر أثرها، خطرها، وكيفية علاجها يقول:

«قاعدة جليلة: مبدأُ كلِّ علم نظري وعمل اختياري هو الخواطرُ والأفكار؛ فإنها توجب التصوُّرات، والتصوُّرات تدعو إلى

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (١/ ٢٦٧).
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٢).

الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرةُ تكراره تعطي العدة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها.

فصلاحُ الخواطر بأنْ تكونَ مراقبةً لوليِّها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرةً على مرضاته ومحابِّه؛ فإنه سبحانه به كلُّ صلاح، ومِنْ عنده كل هدى، ومِنْ توفيقه كلُّ رشد، ومِنْ تولِّيه لعبده كلُّ حفظ، ومِنْ توليه وإعراضه عنه كلُّ ضلال وشقاء؛ فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطرق معرفته وطرق عبوديته، وإنزالِهِ إياه حاضرًا معه مشاهدًا له ناظرًا إليه رقيبًا عليه، مُطَّلعًا على خواطره وإرادته وهمِّه؛ فحينئذٍ يستحي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطَّلع عليها مخلوقٌ مثله، أو يُرِيَ نفسه خاطرًا يمقته عليه.

فمتى أنزَلَ ربَّه هذه المنزلة منه، رفعه وقرَّبه منه، وأكرمه واجتباه وولاه، وبقدر ذلك يبعُدُ عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة، كما أنه كلَّما بَعُدَ منه وأعرض عنه، قرب من الأوساخ والدناءات والأقذار، ويقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص.

فالإنسانُ: خيرُ المخلوقات إذا تقرَّب من بارئه، والتزَمَ أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه. وشرُّ المخلوقاتِ إذا تباعد عنه، ولم يتحرَّك قلبه لقربه وطاعته وابتغاءِ مرضاته: فمتى اختار التقرُّب إليه، وآثره على نفسه وهواه، فقد حَكَّمَ قلبَه على

عقله، وإيمانَه على نفسِهِ وشيطانِهِ، وحَكَّمَ رشدَه على غيه، وهداه على هواه. ومتى اختار التباعد منه، فقد حَكَّمَ نفسَه وهواه وشيطانَه على عقله وقلبه ورشده...

ومعلوم أن الإنسان لم يُعْطَ إماتةَ الخواطر، ولا القوةَ على قطعها؛ فإنها تهجُمُ عليه هجومَ النفس، إلا أنَّ قوة الإيمان والعقل تُعِينُهُ على قبول أحسنها، ورضاه به، ومساكنته له، وعلى رفع أقبحها وكراهته له، ونفرته منه؛ كما **قال الصحابة: يا رسول الله، إنَّ أحدنا يَجِدُ في نفسه ما إنْ يحترقْ حتى يصير حُمَمَةً أحبُّ إليه من أن يتكلَّم به؟ فقال: «أَوَقَدْ وجدتموه؟!» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريحُ الإيمان»**، وفي لفظ: **«الحمدُ لله الذي رَدَّ كيده إلى الوسوسة»**.

وفيه قولان:

أحدهما: أنَّ ردَّه وكراهيته صريحُ الإيمان.

والثاني: أنَّ وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريحُ الإيمان؛ فإنه إنما ألقاه في النفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته به.

وقد خلَقَ الله سبحانه النفسَ شبيهةً بالرحى الدائرةِ التي لا تسكُنُ ولابدَّ لها من شيء تطحنه: فإنْ وضع فيها حَبٌّ طحنته، وإنْ وضع فيها تراب أو حصى طحنته.

فالأفكارُ والخواطر التي تجولُ في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضعُ في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قطُّ، بل لابد

لها من شيء يوضع فيها:

فمِنَ الناس من تطحن رحاه حبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحَنُ رملاً وحصًى وتبنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز، تبيَّن له حقيقة طحينه.

فأنفع الدواء: أن تَشْغَلَ نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك؛ فالفكر فيما لا يعني بابُ كلِّ شر، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادةُ والهمة أحقُّ شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإنَّ هذه خاصَّتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادةَ لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطِهِ عليك، ومَنْ كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكنْ في سائر أمره إلا كذلك، وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فسادًا يصعُبُ تداركه، ويلقي إليك أنواعَ الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنتَ الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك...

وجماعُ إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصوُّرات بمعرفة ما يلزمك: التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى الدخولِ إلى الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرُّز منها، وفي باب الإرادات والعزوم: أن تشغَلَ نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرحِ إرادةِ ما يضرُّك إرادته، وعند العارفين: أنَّ

تمنِّيَ الخيانةِ وإشغالَ الفكر والقلب بها أضرُّ على القلب من نفس الخيانة...»[١]. اهـ.

علاج الخواطر الرديئة:

١ ـ المدافعة:

يقول ابن القيم: «دافع الخطرة فإنْ لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فإنْ لم تفعلْ صارت شهوة، فحاربها فإنْ لم تفعل صارت عزيمةً وهمة، فإنْ لم تدافعها صارت فعلاً، فإنْ لم تتداركه بضده صار عادة فيصعُبُ عليك الانتقال عنها»[٢] اهـ.

«ومن المعلوم: أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهلُ من قطع العوائد»[٣] اهـ.

٢ ـ إحلال الخواطر الطيبة الحسنة:

قال ابن القيم: «الإقبالُ على اللهِ، والإخلاصُ له، وجَعْلُ محبته وترضِّيه والإنابةِ إليه في محلِّ خواطر نفسه وأمانيها تَدِبُّ فيها دبيبَ الخواطر شيئًا فشيئًا، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى

---

(١) «الفوائد» (١/ ١٧٣).
(٢) «الفوائد» (١/ ٣١).
(٣) «الفوائد» (١/ ١٧٥).

خواطره وهواجسه وأمانيه كلُّها في مَحَابِّ الرب والتقرُّب إليه وتملُّقه وترضيه واستعطافه وذكره...»[١] اهـ.

ويقول ابن القيم: «ورأس الأمر وعموده في ذلك: إنما هو دوامُ التفكُّر وتدبُّر آيات الله حتى تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكانَ الخواطر من قلبه وجلس على كرسيِّه، وصار له التصرُّف، وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يباري الريح؛ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]»[٢].

٣ ـ لزوم طريق الاستقامة:

قال ابن القيم: «قاعدةٌ في ذكر طريق يوصِّل إلى الاستقامة في الأحوالِ والأقوال والأعمال، وهي شيئان: حراسة الخواطر وحفظها، والحذَرُ من إهمالها والاسترسال معها.

فإنَّ أصل الفساد كلِّه من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب؛ فإذا تمكَّن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصيرَ إراداتٍ، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم؛ فيجد العبد نفسه عاجزًا

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٦٦).
(٢) «الرسالة التبوكية» (٦٢).

أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادةً جازمة، وهو المفرِّط إذْ لم يدفعها وهي خاطرٌ ضعيف؛ كمن تهاون بشرارة من نار وقعَتْ في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريقُ إلى حفظ الخواطر؟

قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلمُ الجازم باطلاعِ الربِّ سبحانه ونظرِهِ إلى قلبك، وعلمِهِ بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالُكَ له أن يرى مثلَ تلك الخواطر في بيته الذي خُلِقَ لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقُطَ من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارُكَ له أن تساكن قلبَكَ غيرَ محبَّته.

السادس: خشيتك أن تتولَّد تلك الخواطر، ويستعر شرارها؛ فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلْقَى للطائر ليصاد به؛ فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً؛ بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه

وأخرجه، واستوطن مكانه؛ فما الظنُّ بقلب غلبت خواطرُ النفس والشيطان فيه خواطرَ الإيمان والمعرفة والمحبة، فأخرجتها واستوطَنَتْ مكانها، لكنْ لو كان للقلب حياةٌ لشعَرَ بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أنْ يعلم أنَّ تلك الخواطر بَحْرٌ من بحور الخيال لا ساحلَ له، فإذا دخل القلب في غمراته، غَرِقَ فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلاً؛ فقلبٌ تملكه الخواطر بعيدٌ من الفلاح معذَّبٌ مشغولٌ بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين؛ فلا تثمرُ لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب، أورثته الوساوسَ وعزلته عن سلطانها، وأفسدَتْ عليه رعيَّته، وألقته في الأسر الطويل، وكما أنَّ هذا معلومٌ في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصلُ الخير كلِّه؛ فإنَّ أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها: أثمرَتْ له كلَّ فعل جميل، وملأتْ قلبه من الخيرات، واستَعْمَلَتْ جوارحه في الطاعات، واستقر بها الملكُ في سلطانه، واستقامَتْ له رعيته؛ ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك، عملت على حفظ الخواطر؛ فكان ذلك هو سيرَهَا وجُلَّ أعمالها؛ وهذا نافع لصاحبه بشرطين:

أحدهما: أنْ لا يترك به واجبًا ولا سنة.

والثاني: أنْ لا يجعلَ مجرَّدَ حفظها هو المقصودَ؛ بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعَلَ موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكُّل والخشية؛ فيفرِّغَ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منها معًا كان خاسرًا؛ فلابدَّ من التفطُّن لهذا»[١] اهـ.

٤ ـ ومن العلاج: إحياء مراقبة الله في النفس:

يقول ابن القيم:

«وَهُوَ الرقيبُ على الخواطر واللَّوَا حِظِ كيفَ بالأفعالِ بالأركان»[٢]

ولا تنس الاستعانةَ مِنْ قبلُ ومنْ بعدُ بـ«الحيِّ القيوم الذي لكمال حياته وقيوميَّته لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نوم. مالكِ السموات والأرض الذي لكمالِ ملكه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه. العالِمِ بكلِّ شيء الذي لكمالِ علمه يعلَمُ ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم؛ فلا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرة إلا بإذنه، يعلم دبيب الخواطر في القلوبِ حيث لا يطَّلع عليها الملك، ويعلَمُ ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلبُ. البصيرِ الذي لكمال بصره يرى تفاصيلَ خلق الذرة الصغيرة وأعضائها، ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصَّمَّاء، في الليلة الظلماء،

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٧٤).

(٢) «شرح القصيدة النونية» (٢/ ٢٢٨).

ويرى ما تحت الأَرَضِينَ السبعِ كما يرى ما فوق السموات السبع. السميعِ الذي قد استوى في سمعه سِرُّ القول وجهره»[١] اهـ.

القاعدة الرابعة: فاظفر بذات الدين تربت يداك:

عن علقمة قال: كنتُ مع عبدالله، فلقيه عثمانُ بمِنًى، فقال: يا أبا عبدالرحمن، إن لي إليك حاجة، فَخَلَوَا، فقال عثمان: هل لك يا أبا عبدالرحمن في أن نزوِّجك بِكْرًا تُذَكِّرُكَ ما كنت تعهد؟ فلمَّا رأى عبدالله أنْ ليس له حاجةٌ إلى هذا، أشار إليَّ فقال: يا علقمة، فانتهيتُ إليه وهو يقول: أَمَا لَئِنْ قلتَ ذلك لقد قال لنا النبي ﷺ: «**يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكم البَاءَةَ فَليتزوَّجْ، ومَنْ لم يستطعْ فعليه بالصومِ؛ فإنه له وِجَاءٌ**»[٢].

يقول الإمام النووي: «واختلَفَ العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين، فقيل: مُؤَن النكاح، وقيل: الجِمَاع. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، أصحُّهما: أن المراد الجماع، والتقدير: مَن استطاع منكم الجماعَ لقدرته على مؤَنه، فليتزوَّج، ومن لم يستطع الجِمَاع لعجزه عن مُؤَنه، فعليه بالصوم، ليدفع شهوته، ويقطع شر مَنِيِّهِ، كما يقطعه الوِجَاء.

وأما «الوِجَاء»: فهو رَضُّ الخصيتين، والمراد هنا: أن الصوم يقطع الشهوة، ويقطع شر المَنِيّ، كما يفعله الوجاء. وفي

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢١١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٥).

الحديث: الأمرُ بالنكاح لِمَنِ استطاعه وتاقت إليه نفسه؛ وهذا مُجْمَع عليه.

وأما قوله ﷺ: «فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي» فمعناه: مَنْ رغب عنها إعراضًا عنها غيرَ معتقد لها على ما هي، والله أعلم. اهـ.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«النكاحُ من سُنَّتي، فمَن لم يعمَلْ بسُنَّتي فليس مني، وتزوَّجوا، فإني مكاثر بكم الأُمم، ومَن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، ومَن لم يجدْ فعليه بالصيام؛ فإن الصوم له وِجَاء»**[1].

عن مَعْقِلِ بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبْتُ امرأةً ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد أفأتزوَّجها؟ قال: **«لا»**، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: **«تزوَّجوا الودود الولود؛ فإني مُكَاثِرٌ بكم الأُمم»**[2].

قال الغزالي[3]: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يتم نسك الناسِك حتى يتزوَّج»: **يحتمل**: أنَّه جعله من النسك وتتمةً له، **ولكن الظاهر**: أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج، ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب؛ ولذلك كان يجمع غِلْمانه لما أدركوا عكرمة وكُرَيْبًا وغيرهما، ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم؛ فإن العبد إذا زنى، نزع الإيمان من قلبه» اهـ.

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٩٦).
(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٨٠٥).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٣).

روى الحاكم عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ رزقه الله امرأةً صالحة، فقد أعانه على شطر دينه؛ فليتق الله في الشطر الباقي**»[١].

قال المناوي: «وذلك لأن أعظم البلاء القادح في الدين: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وبالمرأة الصالحة تحصُلُ العفة عن الزنى وهو الشطر الأول، فيبقى الشطر الثاني وهو شهوة البطن، فأوصاه بالتقوى فيه لتكمل ديانته وتحصل استقامته. وهذا التوجيه أولى من قول بعض الموالي: «المرأةُ الصالحة تمنع زوجها من القباحة الخارجية، فعبَّر عن إعانتها إياه بالشطر بمعنى البعض مطلقًا أو بمعنى النصف». انتهى.

وقيَّد بالصالحة؛ لأن غيرها وإنْ كانت تعفُّه عن الزنى، لكن ربَّما تحمله على التورُّط في المهالك وكسب الحطام من الحرام، وجعل المرأة رزقًا؛ لأنا إن قلنا: إن الرزق ما ينتفع به كما أطلقه البعض، فظاهر. وإنْ قلنا: إنه ما ينتفع به للتغذي كما عبَّر البعض فكذلك؛ لأنه كما أن ما يتغذى به يدفع الجوع، كذلك النكاح يدفع التَّوَقَان إلى الباه؛ فيكون تشبيهًا بليغًا، أو استعارة تَبَعِيَّة. قال ابن حجر في «الفتح» حديث (٥٠٦٥): هذا الحديث - وإن كان فيه ضعفٌ - فمجموعُ طرقه تدلُّ على أنه لما يحصل به المقصود من الترغيب في التزويج أصلاً، لكن في حق مَنْ يتأتى منه النسل»[٢].

---

(١) قال الألباني: حسن لغيره، «صحيح الترغيب» (١٩١٦).
(٢) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٣٧).

ومن المصالح الحاصلة من النكاح: قضاءُ الشهوة على وجه مباح، مع حصول الثواب على ذلك:

روى مسلم (١٠٠٦) عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «**وفي بُضْعِ أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتُمْ لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وِزْرٌ، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أَجْرٌ**».

قال النووي[١]: «وفي هذا دليلٌ على أن المباحات تصير طاعات، بالنيات الصادقات؛ فالجِماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعًا من النظر إلى الحرام، أو الفِكْرِ فيه، أو الهمِّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة». اهـ.

وقد وعد الله تعالى على لسان رسوله ﷺ أن الناكح يريد العفاف؛ فإن الله تعالى يعينه:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ حَقٌّ على الله عونهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء، والناكِحُ الذي يريد العفاف**»[٢].

قال الإمام النووي: «ثلاثة حق على الله عونهم» أي: واجبٌ

---

(١) «شرح مسلم» حديث (١٠٠٦).

(٢) رواه الترمذي (١٦٥٥) وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٣٥٢).

عليه بمقتضى وعده معاونتهم، «المجاهدُ في سبيل الله» أي: بما يتيسَّر له الجهاد من الأسباب والآلات، «والمكاتَبُ الذي يريد الأداء» أي: بدل الكتابة، «والناكح الذي يريد العفاف» أي: العفة من الزنى. قال الطِّيبي: إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الأمور من الأمور الشاقَّة التي تَفْدَحُ الإنسان، وتَقْصِمُ ظهره، لولا أن الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها، وأصعبها العفاف؛ لأنه قمع الشهوة الجِبِلِّيَّة المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين، فإذا استعفَّ وتداركه عون الله تعالى، تَرَقَّى إلى منزلة الملائكة وأعلى عِلِّيين[1]. اهـ.

قال القرطبي: فعلى الإنسان إذا لم يصبرْ في هذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدين؛ ليسلَمَ له الدين. اهـ.

علاج الشهوة العارمة:

١ ـ إذا لم تندفع شهوته بزوجة واحدة، استُحِبَّ له التعدد:

والمرأةُ يَعْرِضُ لها ما يمنع الرجل من قضاء شهوته؛ كالحيض والحمل، فالسبيل الشرعي لتسكين شهوته هو التعدد، وقد يكون الرجلُ قويَّ الشهوة فلا مَعْدِلَ له عن التعدد.

قال الغزالي[2]: ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوةُ بحيث لا تحصِّنه المرأة الواحدة فيستحبُّ لصاحبها الزيادةُ على الواحدة إلى

(١) «تحفة الأحوذي» حديث (١٦٥٥).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٠).

الأربع... وكان الصحابة من له الثلاث والأربع، ومَنْ كان له اثنتان لا يحصى، ومهما كان الباعث معلومًا فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمرادُ تسكينُ النفس، فلينظرْ إليه في الكثرة والقلة. اهـ.

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان: لأَطُوفَنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً كُلُّهُنَّ تأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إنْ شاء الله، فلم يقل: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعًا لم يحملْ منهنَّ إلا امرأةٌ واحدة جاءت بِشِقِّ رجل، وايْمُ الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فُرْسَانًا أجمعون**»[١].

قال الحافظ: وفيه ما خص به الأنبياء من القوة على الجماع الدالِّ ذلك على صحة البنية، وقوةِ الفحوليَّة، وكمال الرجولية، مع ما هم فيه من الاشتغال بالعبادة والعلوم. وقد وقع للنبي ﷺ من ذلك أبلغُ المعجزة؛ لأنه مع اشتغاله بعبادة ربه وعلومه ومعالجة الخلق، كان متقللاً من المآكل والمشارب المقتضية لضعف البدن على كثرة الجماع، ومع ذلك: فكان يطوفُ على نسائه في ليلة بغُسْلٍ واحد وهُنَّ إحدى عشرة امرأة... ويُقال: إنَّ كلَّ مَنْ كان أتقى لله فشهوته أشد؛ لأن الذي لا يتقي يتفرَّج بالنظر ونحوه. اهـ.

وطاف النبي ﷺ على نسائه ليلةَ إحرامه في حجة الوداع وهو

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٩).

بذي الحُلَيْفة[1].

قال القرطبي: إن سليمان عليه السلام كان أكثر الأنبياء نساءً. والفائدة في كثرة تزوجه أنه كان له قوة أربعين نبيًّا، وكل مَنْ كان أقوى فهو أكثر نكاحًا... ويُقال: إن كل مَنْ كان أتقى فشهوته أشد؛ لأن الذي لا يكون تقيًّا فإنما يتفرَّج بالنظر والمس؛ ألا ترى ما روى في الخبر: «**العينان تزنيان، واليدان تزنيان**». فإذا كان في النظر والمس نوعٌ من قضاء الشهوة، قلَّ الجماع، والمتقي لا ينظر ولا يمس؛ فتكون الشهوة مجتمعة في نفسه، فيكون أكثر جِماعًا. وقال أبو بكر الوراق: كل شهوة تقسِّي القلب إلا الجماع؛ فإنه يصفي القلب؛ ولهذا كان الأنبياء يفعلون ذلك. اهـ.

وكان من نعيم أهل الجنة: أن أعطاهم الله القوةَ على الجماع والطعام حتى يزداد بذلك نعيمهم.

عن زيد بن أرقم قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألستَ تزعمُ أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ ـ وقال لأصحابه: إنْ أقَرَّ لي بهذه خَصَمْتُهُ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بلى والذي نفسي بيده، إنَّ أحدهم ليُعْطَى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجِماع**»، قال: فقال له اليهودي: فإنَّ الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**حاجةُ أحدهم عَرَقٌ يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فإذا**

(١) رواه البخاري (٢٦٧).

البطن قد ضمر»[١].

٢ ـ ومن علاج الشهوة لمَن كان له زوجة أنه إن رأى من امرأة شيئًا، فليأتِ أهله؛ فإنَّ ذلك يردُّه عن الوقوع في الحرام:

عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتى امرأتَهُ زينبَ وهي تَمْعَسُ مَنِيئَةً لها، فقضى حاجته ثم خرَجَ إلى أصحابه فقال: «إنَّ المرأةَ تُقْبِلُ في صورة شيطان، وتُدْبِرُ في صورة شيطان، فإذا أبصَرَ أحدكم امرأةً، فليأْتِ أهله؛ فإنَّ ذلك يَرُدُّ ما في نفسه»[٢].

عن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَاري قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصحابه فدخل، ثم خرج وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله، قد كان شيء؟ قال: «أجل، مَرَّتْ بي فُلانَةُ فوقَعَ في قلبي شهوة النساء، فأتيت بعض أزواجي فأصبتها؛ فكذلك فافعلوا؛ فإنه مِنْ أماثل أعمالكم إتيانُ الحلال»[٣].

قال النووي: «إن المرأة تُقْبِلُ في صورة شيطان، وتُدْبِرُ في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة، فليأت أهله؛ فإن ذلك يَرُدُّ ما في نفسه»، وفي الرواية الأخرى: «إذا أحدكم أعجبته المرأة، فوقعت في قلبه، فليعمدْ إلى امرأته فليواقعها؛ فإن ذلك يَرُدُّ ما في

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٤٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧٣٩).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد (١٧٣٣٧)، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٥): إسناده حسن.

نفسه». هذه الرواية الثانية مبينة للأولى، ومعنى الحديث: أنه يستحب لِمَنْ رأى امرأة فتحرَّكت شهوته أن يأتي امرأته فليواقعها؛ ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده.

قوله ﷺ: «**إن المرأة تُقْبِلُ في صورة شيطان، وتُدْبِر في صورة شيطان**» قال العلماء: معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذِ بنظرهنَّ، وما يتعلق بهنَّ، فهي شبيهةٌ بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له. ويُستنبط من هذا: أنه ينبغي لها ألاَّ تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغضُّ عن ثيابها، والإعراضُ عنها مطلقًا. «**تَمْعَس مَنِيئَة**» قال أهل اللغة: المَعْسُ: الدَّلْك، و«المَنِيئَة»: هي الجِلْدُ أول ما يوضع الدِّبَاغ. اهـ.

٣ ـ أن يأخذ دواءً يقلل الشهوة:

قال الحافظ في كلامه على حديث «**فعليه بالصوم...**»:

واستدلَّ به الخطَّابِيُّ على جواز المعالجة لقطع شهوة النكاح بالأدوية، وحكاه البغوي في «شرح السُّنَّة»، وينبغي أن يحمل على دواء يُسَكِّنُ الشهوة دون ما يقطعها أصالة؛ لأنه قد يقدر بعدُ فيندمُ لفوات ذلك في حقه، وقد صرَّح الشافعية بأنه لا يكسرها بالكافور ونحوه؛ والحجةُ فيه: أنهم اتفقوا على منع الجَبِّ والخِصَاءِ؛ فيلحق بذلك ما في معناه من التداوي بالقطع أصلاً. اهـ.

فلا بأس من تناول دواء يخفف الشهوة كبعض المركَّبات أو

المشتقات من الأعشاب وغيرها مما يحدُّ من الشهوة إذا لم تكن ضارة، ولكنَّ هذا قد لا يفيد كثيرًا إذا لم يمارسِ الشبابُ العباداتِ التي تملأ الوقتَ، والنشاطاتِ التي تستهلك من طاقة الجسم كسائر أعمال البِرِّ من الدعوة إلى الله، وإعانة المحتاجين، وعليه التقليل من تناول الأطعمة الدسمة مع ممارسة شيء من الرياضة، ويشغل نفسه بأعمال مفيدة، ويجعل له نظامًا برامج يصرف به طاقة الجسم الزائدة، ولا تنس أن الابتعاد عن الإثارة أمر مهم.

القاعدة الخامسة: عليك بالجُنَّة الحصينة:

قد لا يتيسر للعبد الزواج وهو مأمورٌ بالاستعفاف؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٣]، وفي أثناء تطلُّب النكاح هل من جُنَّة يتحصَّن بها العبد من ألم الشهوة؟

نعم إنه التعفُّفُ والاستعانةُ بالصوم.

قال النبي ﷺ: **«يا معشَرَ الشباب، مَنِ استطاعَ منكم البَاءَةَ فليتزوَّجْ، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجَاء»**[١].

قال ابن القيم[٢]: فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وُضِعَ لهذا الأمر، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم؛ فإنه يكسر شهوة النفس، ويضيِّق عليها مجاري الشهوة؛ فإن هذه الشهوة

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٥).

(٢) «روضة المحبين» (١/٢١٩).

تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته؛ فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل، وقَلَّ من أدمَنَ الصوم إلا وماتتْ شهوته أو ضعفت. اهـ.

وقال القرطبي: كلَّما قل الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصي. اهـ.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقولُ الله عز وجل: الصومُ لي وأنا أجزي به، يَدَعُ شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصومُ جُنَّةٌ، وللصائم فرحتان: فرحةٌ حين يُفْطِر، وفرحةٌ حين يلقى ربَّه، ولَخُلُوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْك**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصيامُ جُنَّة، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ، وإن امرُؤٌ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم مرتين، والذي نفسي بيده! لخلوف فم الصائم أطيبُ عند الله تعالى من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيامُ لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها**»[2].

وعن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيِّ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الصيامُ جُنَّـةٌ من النار كجُنَّةِ أحدكم من القتال**»[3].

قال الحافظ ابن حجر: «**الصيام جُنَّة**» زاد سعيد بن منصور: «**جُنَّةٌ من النار**»، ولأحمد عن أبي هريرة: «**جُنَّة وحِصْنٌ حصين من**

---

(١) رواه البخاري (٧٤٩٢).

(٢) رواه البخاري (١٨٩٤).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٢٨).

النار»، والجُنَّة: الوقاية والسَّتر. وقد تبيَّن بهذه الروايات مُتَعَلَّق هذا السَّتْر، وأنه من النار، وبهذا جزم ابن عبدالبر. وأما صاحب «النهاية» فقال: معنى كونه جُنَّة، أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات... فينبغي للصائم أن يصونه مما يفسده وينقص ثوابه، وإليه الإشارة بقوله: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث... إلخ**»، ويصحُّ أن يراد أنه سُتْرة بحسب فائدته، وهو إضعاف شهوات النفس، وإليه الإشارةُ بقوله: «**يدع شهوته... إلخ**»... وقال عياض: معناه سُتْرَةٌ من الآثام، أو من النار، أو من جميع ذلك. وبالأخير جزم النووي. اهـ.

فالصومُ عبادةٌ عظيمة، ولا شك أن الأخذ بنصيب من التعبُّدات يزيد في إيمان العبد مما يباعده عن الوقوع في المحظورات، إضافةً إلى أن في طبيعة الصيام من الامتناع عن الأكل والشرب ما يضعفُ الشهوةَ، ويضعف عمل إبليس في النفس، وكذلك فالصيامُ يربِّي صاحبه على قوة العزيمة والإرادة مما يمكِّنه بإرادته هذه وعزيمته من مجابهة الشهوة وقهرها والانتصار عليها.

القاعدة السادسة: حَذَارِ من أهل الفحش والتفحُّش:

نهى الله عن البذاءة، ومَنَعَ من الفحش في القول؛ قال تعالى: ﴿ ۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]، وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمنُ بالطعَّان ولا باللعَّان، ولا بالفاحِش ولا**

بالبذيء»(١).

فاحذر أيها المسلم، وأيتها المسلمة من:

ـ الألفاظ الغَزَلِيَّة المثيرة الفاحشة، التي تثير ساكن النفس مما يتكلَّم به بالهاتف أو بالرسائل أو رسائل الجوال أو غير ذلك.

ـ ذِكْرِ أو تتبُّعِ النكت التي تكون فاحشةً تصك أسماع أهل العفة.

ـ قراءة بعض القصص والروايات التافهة غير اللائقة.

الحـــبُّ أول شـــيء قـــد يهيـــمُ بـــه
قلبُ المُحِبِّ فَيَلْقَى الموتَ كاللَّعِبِ
يكـــونُ مَبْـدَؤُهُ مِـــنْ نظـرةٍ عــرَضَــتْ
ومَـزْحَـةً أُشْعِلَـتْ فـي القلـبِ كـاللَّهَـبِ
كــالنــارِ مبــدؤُهَــا مِــنْ قَــدْحــةٍ فــإذا
تضـرَّمَـتْ أحـرَقَـتْ مستَجْمِـعَ الحَطَـبِ

القاعدة السابعة: عليك بالفرار من أماكن الفتنة:

فلا يخفى أننا نعيش اليوم في مجتمع قد ملئ بالفتن ـ إعلاناتٌ من جميع الأشكال ـ مَجَلاَّتٌ ـ معاكسات في الأسواق ـ فضائيات ـ إنترنت... إلخ، فعليك بالفرار منها جميعًا؛ ليسلم لك دينك.

تأمَّلْ في نبي الله يوسف وما فعل، وفِرَارِهِ من امرأة العزيز؛ يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، فلم

(١) «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠).

يتلبَّث أو ينتظر يفكِّر ويقدِّر؛ بل هو الفرار سريعًا، إن طبيعة الشهوة تجعلها طاقة متى ما استثيرت اشتعلت في نفس صاحبها فلا تهدأ، وتظل تلح عليه، وتلح عليه فيقع المحظور إلاَّ إنْ عصم الله؛ فالحذَرَ الحذَرَ من إثارتها بارتياد مواطن الفتن، فإنِ اضطُرَّ يومًا لارتياد ما يباح كالأسواق مثلاً، فليخفِّفْ وليجعَلْ ذهابه على قدر الحاجة ولا ينس غض البصر.

القاعدة الثامنة: لا تجعلوا بيوتكم قبورًا:

اجعل من بيتك مذكرًا لك بالطاعة لا بالمعصية؛ فإنَّ من عمل معصية في غرفته مثلاً يجعلُ ارتباطًا للغرفة بالمعصية، وهذا يجعل العبد يقع في المعصية مرة ومرتين وثلاثًا؛ إذْ إنه كلَّما دخلها تذكَّر المعصية، فلعله يستثار فيقع المحظور، أما إن جعل من غرفته ومن بيته مذكِّرًا بالطاعة جرَّه ذلك إلى طاعات أخرى، فإذا دخل فرأى المُصْحَفَ الذي يقرأ منه ـ مثلاً ـ وتذكَّر قيامه لله وسننه الرواتب التي أدَّاها في هذه الحجرة، وتكثيرُ الطاعات في بيتك يربطُهَا في نفسك بالخير وبفعلِ الخير؛ فتستزيدُ من ذلك، ويقلُّ ورود المعصية على ذهنك، ويخف نداء الشهوة.

القاعدة التاسعة: ونفسك إنْ لم تشغلها بالطاعة، شغلتك بالمعصية:

إن الوقت نعمة عظيمة من نعم الله على العبد، لكن المغبون فيها ومنقوص الحظ منها كثير؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس:**

الصحةُ، والفراغ»[١].

والغَبْن: هو الخسارة في البيع، بأن يشتري السلعة بأضعاف ثمنها، أو يبيعها بأقل من ثمنها.

فكثير من الناس أنعم الله عليهم بنعمة الصحة والفراغ من الشغل.

فقد يكونُ الإنسان صحيحًا ولا يكونُ متفرِّغًا لشغله بالمعاش، وقد يكونُ مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمع له الصحة والفراغ ولم يستغلَّهما فيما ينفعه في الآخرة فهو المغبون الخاسر في أعماله.

ولذلك سمَّى الله تعالى يوم القيامة بيوم التغابن: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، أي: يظهر فيه الغَبْنُ والخسران لكل أحد:

أما الكافر: فإنه خسر بترك الإيمان بالله تعالى، وذلك هو الخسران المبين.

أما المؤمن: فإنه يظهر له خسرانه أيضًا، في بعض الأوقات التي مرَّت عليه ولم يستفدْ منها طاعة لله عز وجل.

قال ﷺ: **«ليس يتحسَّرُ أهلُ الجنة إلا على ساعة مرَّت بهم ولم يذكروا الله عز وجل فيها»**[٢]؛ فهذا تحسُّر أهل الجنة على ساعة

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

(٢) رواه الطبراني وحسَّنه السيوطي والمناوي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٦)، ولكنه قال: هو أقرب إلى الضعف!!!

لم يذكروا فيها اسم الله، فكيف تَحَسُّرُ مَنْ أنفق أيامًا وشهورًا وسنين فـي معصيـة الله، واستـرسَـلَ مـع الشهـوة فـي أوديـة المعـاصـي المختلفة؟! لا شك أن الغبن والحسرة ستكون أكبر وأكبر.

وليتذكر العبد دائمًا حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تَزُولُ قَدَمُ ابن آدم يوم القيامة مِنْ عند ربِّه حتى يُسْأَلَ عن خمس: عَن عُمُرِه فِيمَ أفناه، وعن شبابه فِيمَ أبلاه، ومالِهِ من أين اكتسبه وفِيمَ أنفقه، وماذا عمل فيما عَلِم»[1]:

«حتى يُسْأَل عن خمس: عن عمره فيمَ أفناه» أي: فيما صرفه، «وعن شبابه فيمَ أبلاه» أي: فيما ضيَّعه، وفي إعادة السؤال عن الشباب بعد السؤال عن العمر كلِّه إشارةٌ إلى أهمية وقت الشباب، وأنَّ التفريطَ فيه خسارةٌ عظمى؛ لأن الإنسان يتمكَّن فيه من العبادات التي لا يتمكَّن من فعلها بعد الشيخوخة والكبر، «وعن ماله من أين اكتسبه» أمِن حرام أو حلال؟ «وفيمَ أنفقه» في طاعة أو معصية، «وماذا عمل فيما عَلِم»[2].

وكذلك ليتذكر حديثَ ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابَكَ قبل هَرَمك، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمك، وغِنَاك قبل فقرك، وفراغَكَ قبل شغلك، وحياتَكَ قبل موتك»[3]:

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٩٤٦).

(٢) «تحفة الأحوذي» بتصرف، حديث (٢٤١٦).

(٣) حسَّنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، «إحياء علوم الدين» (٤٥٩).

قال المناوي: «اغتنم خمسًا قبل خمس: **حياتَكَ قبل موتك**» يعني: اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك؛ فإنَّ الإنسان إذا مات انقطع عمله.

«**وصحتَكَ قبل سقمك**» أي: اغتنم العمل حال الصحة؛ فقد يمنع مانعٌ كمرض، فَتَقْدَمُ المعاد بغير زاد.

«**وفراغَكَ قبل شغلك**» أي: اغتنِمْ فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال القيامة.

«**وشبابكَ قبل هرمك**» أي: اغتنمِ الطاعة حال قدرتك قبل هجومِ عجزِ الكبر عليك؛ فتندم على ما فَرَّطْتَ في جنب الله.

«**وغناك قبل فقرك**» أي: اغتنم التصدُّق بفضول مالك قبل عروض جائحة تفقرك فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة.

فهذه الخمسة لا يُعْرَفُ قدرُها إلا بعد زوالها. اهـ.

«إن الفراغ مفسد للنفس إفساد الطاقة المختزنة بلا ضرورة، وأولُ مفاسد الفراغ تبديدُ الطاقة الحيوية لملء الفراغ! ثم التعوُّد على العادات الضارة التي يقوم بها الإنسان لملء هذا الفراغ».

«وحين ألغى الإسلامُ عادات الجاهلية وأعيادها ومواسمها وطرائق حياتها، لم يترك ذلك فراغًا يتحير المسلمون في ملئه... بل أبدلهم بأعياد ومواسم أخرى تحل محلها؛ كانوا يجتمعون على موائد الخمر والميسر أو لسماع الشعر الضال، فجمعهم على عبادة الله وصلاة الجماعة والأعياد الإسلامية».

«تلك من أنجَحِ الوسائل في تربية النفس خاصَّة حين تمنع النفس لتقويمها من شيء من رغائبها؛ فالوسيلة الصحيحة لملء هذا الفراغ هي إيجادُ نشاطٍ جديد لهذه الرغبة ذاتها»(١).

«إن الولد إذا اختلَىٰ إلى نفسه وقت فراغه تَرِدُ عليه الأفكار الحالمة والهواجس السارحة والتخيلات الجنسية المثيرة؛ فلا يجد نفسه إلا وقد تحركت شهوته وهاجت غريزته أمام هذه الموجة من التأملات والخواطر؛ فعندئذٍ لا يجد بدًّا من أن يلجأ إلى الحرام ليخففَ من طغيان الشهوة ويحدَّ من سلطانها».

يقول الأستاذ عبدالله العلوان:

وخذ هذا المثال: «قال ابن النجار: سمعت أبا القاسم المقرئ جارنا يقول ـ وكان صالحًا ـ: كان الحازمي رَحِمَهُ اللَّهُ في رباط البديع، فكان يدخل بيته في كل ليلة ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفعْ إليه الليلة بزرًا للسراج لعله يستريح الليلة، قال: فلما جن الليل، اعتذر إليه الخادم لأَجْلِ انقطاع البزر، فدخل بيته وصَفَّ قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره فوجده في الصلاة»(٢).

من أشغل نفسه بالخيرات، هل سيجد وقتًا للانشغال بالمحرَّمات؟!

---

(١) «منهج التربية الإسلامية» لمحمد قطب (٢٥٣ ـ ٢٥٥).

(٢) «السير» (٢١/١٦٩).

ومن الأمثلة المعاصرة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في حفظه لوقته؛ فلا تراه إلا متنقلاً من عبادة إلى أخرى، فمن تعليم للعلم، إلى قضاء حوائج الناس، إلى نصيحة للكبير والصغير، إلى صلاة فريضة أو نافلة، إلى إكرام ضيوفه، إلى تعليم وجلوس لأهله، وكان له رَحِمَهُ اللَّهُ ختمتان للقرآن في الشهر؛ إحداهما: في قيام الليل، والأخرى: في تلاوته بالنهار، هذا في غير شهر رمضان، على كثرة مشاغله وكِبَر سنِّه رَحِمَهُ اللَّهُ وجمعنا به في جنات النعيم.

فلابدَّ إذَنْ من مواصلة السير في طاعة الله متنقِّلاً من طاعة إلى أخرى؛ فمن:

قراءة كتاب.. إلى حفظ سورة.. إلى تلخيص شريط.. إلى مذاكرة مادَّة.. إلى كتابة خاطرة.. إلى حضور درس.. إلى حفظ حديث.. إلى كتابة بحث.. إلى زيارة أخ.. إلى صلة رحم.. إلى زيارة مريض.. إلى كتابة مقالة.. إلى إعداد برنامج دعوي.. إلى تفكُّر في آلاء الله ونعمه.. إلى محاسبة للنفس.. إلى صلاة.. إلى ذكر لله.. إلى دعاء.. إلى قراءة مَجَلَّة نافعة.. إلى زيارة مكتبة.. إلى زيارة تسجيلات.. إلى... إلخ.

والمقصودُ: إشغال العمر بما ينفع؛ فإنَّ النفس متى ما أُشْغِلَتْ في طاعة الله، كان ذلك معينًا لها على الانتهاء عمَّا حرم الله. «والنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية».

نصيحة للشباب في تجنب الأسباب الموقعة في الشهوة المحرمة:

١ ـ أصدقاء السوء:

أخي الشاب، يقول النبي ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يُخالِل»[1].

وقد جاء في تحقيقٍ أَجْرَتْهُ جريدةُ الأنباء الكويتية، يقول الشاب (١٧ عامًا): «وفي أول مرة شاهدت فيها هذه الأفلام كان منذ سنين، حين كنت في زيارة لأحد أصدقائي، وكان في غرفته فيلم، فقام بتشغيله ولك أن تتخيَّل أيها القارئ كيف كانت العاقبة.

٢ ـ الفــراغ:

فالفراغ ـ أخي الشاب ـ يقودك للتفكير، حتى يصبح همة، ثم عزيمة، ثم..! ولو لم يأت إلا بالوقوع في العادة السرية التي أضرارها لا تخفى على لبيب، لكفى!

٣ ـ التساهل في الحرام:

يُظْهِرُ ذلك أن عددًا من الشباب كان السببُ في وقوعهم في الشهوة والفاحشة هو التساهُلَ في النظر إلى صورة أو إلى أمرد أو الوقوع في محادثة قد تكونُ في البداية بحُسْنِ قصد لكن الشيطان ثالثهما، وكذلك التساهلُ والإهمالُ في شأن السائقين والخدم وغيرهما من الأمور التي يجبُ على الإنسان أن يبتعد عنها.

---

(١) «صحيح أبي داود» (٤٠٤٦).

٤ ـ البُعد عن المثيرات للشهوة:

فقد حذَّر النبي ﷺ من الجلوس في الطريق الذي قد يكون سببًا في نظر الحرام، وقال ذلك في زمنه حيث لم تكنْ شوارعُ المدينة تعجُّ بالفتن كحالنا اليوم، فقال: «**إيَّاكم والجلوسَ في الطرقات**»، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بُدٌّ إنما هي مجالسنا نتحدَّث فيها، قال: «**فإذا أبيتم إلا المجالسَ، فأعطوا الطريق حقَّها**»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، وَرَدُّ السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر**»[١].

وما أكثر المثيرات الآن:

١ ـ المَجَـلاَّت.

٢ ـ الصحف والجرائد وما تعرضه من صور.

٣ ـ الإنترنت.

٤ ـ الفضائيات وما فيها من أفلام وبرامج...

٥ ـ اختلاط الرجال والنساء في الأسواق وغيرها.

وقد حَرَصَ الشرع على منع ما يثير الشهوة ويوقع في المحذور حتى في العبادات، في الصلاة: حث النساء على التأخُّر عن صفوف الرجال؛ فخيرُ صفوفِ الرجال أوَّلها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٥).

وكان إذا انتهى من الصلاة أمر الرجال أن يبقوا قليلاً حتى تخرج النساء ولا يختلطْنَ بالرجال في الطرقات.

ومنع المرأة إذا خرجت من بيتها أن تتطيَّب؛ روى مسلم من حديث زينب امرأة ابن مسعود، قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: **«إذا شَهِدَتْ إحداكنَّ المسجد، فلا تَمَسَّ طِيباً»**[1].

قال ابن دقيق العيد: ويلحق بالطيب ما في معناه؛ لأن سبب المنع منه ما فيه من تحريك داعية الشهوة؛ كحُسْنِ الملبس، والحلي الذي يظهر، والزينة الفاخرة، وكذا الاختلاط بالرجال. اهـ.

٦ ـ خلوة الرجل بالمرأة.

٧ ـ مكالمات الهاتف ومعاكساته.

٨ ـ الغنــاء.

أخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي، عن أبي عثمان الليثي قال: قال يزيدُ بن الوليد الناقص: يا بني أمية، إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإنْ كنتم لابدَّ فاعلين، فجنِّبوه النساء؛ فإنَّ الغناء داعية الزِّنَى. اهـ.

٩ ـ الانتباه لخطورة الخادمات في البيوت:

السعي لدرء المفاسد واجبٌ من الواجبات الدينية، وسَدُّ أبواب الشرِّ والفتنة من الأولويات الشرعية.

---

(١) رواه مسلم (٤٤٣).

وقد ولَجَ علينا من باب الخادمات كثيرٌ من الفتن والمعاصي، وكثيرٌ من الناس لا ينتبهون، وإذا انتبهوا لا يتعظون، وربَّما لدغ أحدهم مرارًا من جحر واحد ولا يتألَّم، ويسمع أن قارعةً حصلَتْ قريبًا من داره ولا يتعلَّم، وهذا من ضعف الإيمان، وبلادة حِسٍّ، مراقبة الله في قلوب كثير من أهل هذا الزمان، وفي هذه العجالة نبيِّن بعض مساوئ وجود الخادمات في البيوت حتى تكون تذكرة لِمَنْ كان له قلبٌ أو أراد أن يسلك في بيته مسلك الإحسان.

فتنة الإغراء والإغواء التي تحصُلُ من الخادمات للرجال في البيوت وخصوصًا الشباب منهم، بوسائل التزيُّن والخلوة، وتتوالى القصصُ في أسباب انحراف بعض الشباب، والسبب: دخلَتْ عليه، أو انتهَزَ خلوَّ البيت فجاء إليها، وبعضهم يصارحُ أهله ولا مجيب، أو يكتشف بعضُ الأهل شيئًا فيأتي جواب عديم الغيرة: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٢٩]، وتُتْرَكُ النار بجانب الوقود، والوضعُ هو هو لم يتغيَّر، ولقد وصل الأمر أيضًا ببعض الخادمات إلى نقل الشذوذ لبعض الفتيات في البيوت.

فالشابُّ الذي يريد السلامة لابد أن يبتعد عن الصور، والأفلام، والنساء المتبرِّجات، والأغاني الساقطة، والمواقع الهابطة، ولا يرتادُ الأسواق النسائية وأماكنَ تجمُّع النساء إلا عند الضرورة، فمَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

الترهيب من استرسال الرجل مع شهوته:

عن أبي بَرْزَةَ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ مما أخشى عليكم شهواتِ الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلاَّتِ الهوى»[١].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات»[٢].

قال النووي: معناه: لا يُوصَلُ إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتكَ الحجاب وصل إلى المحجوب، فهَتْكُ حجاب الجنة باقتحامِ المكاره، وهتكُ حجاب النار بارتكاب الشهوات.

فأما المكاره: فيدخُلُ فيها الاجتهادُ في العبادات، والمواظبةُ عليها، والصبرُ على مشاقِّها، وكظمُ الغيظ، والعفوُ والحلم، والصدقةُ والإحسان إلى المُسيء، والصبرُ عن الشهوات، ونحو ذلك.

وأما الشهوات التي النار محفوفةٌ بها: فالظاهر أنها الشهوات المحرمة؛ كالخمر، والزنى، والنظر إلى الأجنبية، والغِيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة: فلا تدخل في هذه لكن يكره الإكثارُ منها مخافةَ أن يجر إلى المحرَّمة، أو يُقَسِّي القلب، أو يشغل عن الطاعات، أو يُحْوِج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٩٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٢٣).

ونحو ذلك[١]. اهـ.

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا خلَقَ الله الجنة والنارَ، أرسَلَ جبريل إلى الجنة، فقال: انظُرْ إليها وإلى ما أَعْدَدْتُ لأهلها فيها، قال: فجاءها ونظَرَ إليها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، قال: فرجَعَ إليه، قال: فوعزَّتك لا يسمَعُ بها أحدٌ إلا دخلها، فأمَرَ بها فحُفَّتْ بالمَكَارِه، فقال: ارجعْ إليها فانظُرْ إلى ما أَعْدَدْتُ لأهلها فيها، قال: فرجعَ إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمَكَارِه، فرجع إليه، فقال: وعزَّتك لقد خِفْتُ ألاَّ يدخلها أحد، قال: اذهبْ إلى النار فانظُرْ إليها وإلى ما أَعْدَدْتُ لأهلها فيها، فإذا هي يركَبُ بعضها بعضًا، فرجع إليه، فقال: وعِزَّتِكَ لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلها، فأمر بها فحُفَّتْ بالشهوات، فقال: ارجعْ إليها، فرجَعَ إليها، فقال: وعزَّتِكَ لقد خَشِيتُ ألاَّ ينجُوَ منها أحدٌ إلا دخلها»[٢].

وكان أبومسلم الخولاني إذا أتى خَرِبة وقف عليها ثم قال: يا خربَة، أين أهلك؟ ذهبوا وبَقِيَتْ أعمالهم، انقطعَتِ الشهوة وبقيت الخطيئة، ابن آدم، تركُ الخطيئة أهونُ مِنْ طلب التوبة[٣].

قاوِمْ داعي العودة إلى الجاهلية:

وإليك هذا النموذَجَ في مقاومة الإغراءات والذكريات القديمة الماضية ومقاومة الرجوع:

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» حديث (٢٨٢٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٥٦٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٠٧٥).
(٣) «الزهد» لابن أبي عاصم (١/ ٣٩٣).

كانت طائفة من أصحاب النبي ﷺ يأتون الزنى والفواحش في جاهليَّتهم قبل دخولهم في الإسلام، لكنْ حين نوَّر الإسلامُ قلوبهم استعلَوْا على شهواتهم، واستجابوا لأمر الله تبارك وتعالى، ومِن هؤلاء: الصحابي الجليل مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد رضي الله عنه، فقد ذكر المفسِّرون في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رجلٌ يُقال له مرثد بن أبي مرثد، وكان يحمل الأسرىٰ من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكان بمكة بَغِيٌّ يُقال لها: عَنَاق، وكانت صديقةً له، وكان وعد رجلاً أن يحمله من أسرى مكة، وإنَّ عَنَاقَ رأته فقالتْ له: أقمِ الليلةَ عندي، قال: يا عَنَاقُ! قد حرَّم الله الزنى، فقالت: يا أهلَ الخِبَاء، هذا الذي يحمل أسراكم، قال: فلمَّا قدمتُ المدينةَ، أتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أتزوَّج عناق؟ فلم يَرُدَّ حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال رسول الله ﷺ: «لا تنكحها»[1].

القاعدة العاشرة: عليك بسلاح المؤمن:

إنه السلاح الذي لا يخونُكَ في النوائب والملمات، يستخدمه المؤمن في كل وقت وفي كل حين؛ إنه الدعاء!

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨)، وأبوداود (٢٠٥١) وهو حديث صحيح.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: ١٨٦].

تأمَّل قوله: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾، ولم يقل: فقل: إني قريب.

عن عبادة بن الصامت؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على الأرضِ مسلمٌ يدعو الله بدعوةٍ إلا آتاه الله إيَّاها، أو صرَفَ عنه من السوء مِثْلَهَا؛ ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحم**»، فقال رجلٌ من القوم: إذَن نُكثِرَ، قال: «**الله أكثر**»(١).

وتذكَّر هذا الحديث:

عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روَىٰ عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي، إني حرَّمْتُ الظُّلْمَ على نفسي، وجعلتهُ بينكم محرَّمًا؛ فلا تظالموا، يا عبادي، كُلُّكم ضالٌّ إلا مَن هديتهُ فاستهدوني أَهْدِكم، يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمتهُ فاستطعموني أُطْعِمْكم، يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلا مَنَ كَسَوْتُهُ فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أَغْفِرُ الذنوب جميعًا فاستغفروني أَغْفِرْ لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قَلْبِ رجلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قَلْبِ رجلٍ واحد، ما نقص ذلك**

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٧).

من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته ما نقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها؛ فمَنْ وجد خيرًا فليحمَدِ الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه»[1].

تأمَّل في نبي الله يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

فعليك بالتوجُّه إلى الله، واللَّهَجِ بمثل هذه الدعوات.

عن أنس بن مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقول: «اللهمَّ، ثبِّتْ قلبي على دينك»، فقال رجل: يا رسول الله، تخافُ علينا وقد آمَنَّا بك وصدَّقناك بما جِئْتَ به، فقال: «إنَّ القلوبَ بين إصبعَيْنِ من أصابع الرحمن عز وجل يُقَلِّبها»، وأشار الأعمش بإصبعيه[2].

عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهمَّ، إني أسألك الهُدَىٰ والتُّقَىٰ والعَفَافَ والغِنَىٰ»[3].

عن شُتَيْر بن شَكَلٍ، عن أبيه شَكَلِ بن حُمَيْد قال: قلت: يا

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٩٢).
(٣) رواه مسلم (٢٧٢١).

رسول الله، علِّمني دعاء، قال: «قُل: اللهمَّ، إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر مَنِيِّي»[1].

وإياك والاغترارَ بنفسك أو عملك فتأْمَن، بل تذكَّر أنك ضالٌّ مفتقر للهداية مِنْ واهبها جل وعلا، وتأمَّلْ في حال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وتأمَّلْ في حال نبينا الكريم: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

إذا لـم يكـنْ عـونٌ مـن الله للفتـى
فـأوَّلُ مـا يجنـي عليـه اجتهـادُهُ!

القاعدة الحادية عشرة: لا تيأس:

قد يكون الشابُّ أو الفتاة مارس المحرَّم ووقع في الرذيلة، فجرَّته نفسه الأمَّارة بالسوء إلى مقارفة فاحشةٍ من الفواحش فلا ينبغي أن يصيبه اليأس والإحباط، واعلم أنَّ المرء مهما فعل، إذا تاب توبة صادقة إلى الله، فإنَّ الله يقبل توبته، ويغسل حوبته، ويمحو ذنبه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

هناك كثيرون ارتكبوا معصيةً واثنتين وثلاثًا ثم تتابعوا في

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٧٢).

الحرام، وكلَّما خطر لأحدهم خاطر التوبة، قالت له نفسه الأمَّارة بالسوء: خربانة.. خربانة.. فما الفائدة الآن من التوبة؟!

ولدينا قصةُ المرأة من بني إسرائيل التي كانتْ تمارس البغاء والفجور، فرأت موقفًا أثار مشاعرَ كانتْ كامنة لديها؛ فصار سببًا في مغفرة الله تعالى لها؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّة [أي بئر] كادَ يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فغُفِرَ لها به**»[1].

أخي وأختي، إن الشيطان يحرصُ كلَّ الحرص على أن يصل بالمرء إلى حالةٍ من اليأس من التوبة، ويرى أنَّ الواقعَ الذي صار إليه أصبَحَ سِمَةً ملازمة له لا يمكنُ أن يتجاوزه؛ فتتحوَّل الرغبة في التوبة إلى أمنية تعيش في الخيال، بدلاً من أن تكون قوة تدفع بصاحبها إلى اتخاذ قرار حاسم في تغيير واقعه. وهذا من عمل الشيطان؛ فليدافعْهُ وليعلَمْ أن طائفة من المؤمنين بشرع الله ـ من هذه الأمة ومن الأُمم السابقة ـ كانوا يعاقرون الخمر، ويأتون الفاحشة، ويسيرون في لِهَاثٍ وراء ما تدعوهم إليه رغباتهم ونزواتهم، وما أن نوَّر الله قلوبهم بالإيمان حتى انتصروا على أهوائهم وشهواتهم، والتزموا أمر الله تبارك وتعالى.

إن الشهوةَ التي يعاني منها الشابُّ والفتاة لم تُخْلَقْ لهم

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

وحدهم، فالصالحون والصالحات الذين يعيشون حالةَ التسامي والعفة تدعوهم أنفسهم إلى مقارفة الشهوات، بل ربَّما كانت الشهوةُ لدى بعضهم أقوى مما لدى المُعْرِضين، وتكون الدوافع والمثيرات لديهم أقوى من غيرهم؛ لكنَّهم يجاهدون أنفسهم ويستعينون بالله فيعينهم، فنجاحُ هؤلاءِ يعطي غيرهم الدليلَ على أنهم قادرون ـ بحول الله ـ حين يريدون ذلك، وحين تتحقَّق لديهم العزيمة والاقتناع.

وتذكر متى ما وقعْتَ في المعصية التوبةَ؛ فبادر إليها كلما وقعْتَ، وإياك إياك أن تصرَّ على المعصية يائسًا من رحمة الله أو قانطًا؛ فإنَّ ذلك من أخلاق الكافرين، أمَّا المؤمن: فرجَّاعٌ أوَّاب إلى ربِّه.

وإليك هذا الحديثَ الذي يملأُ نفوس أهل التوبة الصادقة رِضًا وانشراحًا:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أنَّ رجلاً أذنب ذنبًا، فقال: رب إني أذنبتُ ذنبًا، أو قال: عملْتُ عملاً ذنبًا فاغفرْهُ، فقال عز وجل: عبدي عَمِلَ ذنبًا، فعلم أنَّ له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به؛ قد غفرتُ لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر أو أذنب ذنبًا آخر، فقال: ربِّ إني عملتُ ذنبًا فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخُذُ به؛ قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر أو أذنب ذنبًا آخر، فقال: ربِّ إني عملتُ ذنبًا فاغفره، فقال: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به؛ قد غفرت لعبدي، فليعمَلْ ما**

شاء»[١].

وتذكَّر أن إيثار الألمِ العاجلِ خيرٌ من الوقوع في الألم الدائم في الآخرة.

يقول ابن القيم: «هذا بابٌ إنما يدخُلُ منه رجلان:

أحدهما: مَن تمكن من قلبه الإيمانُ بالآخرة وما أعدَّ الله فيها من الثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتَيْن، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجل غلب عقله على هواه، فعلم ما في الفاحشة من المفاسد وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق - صلوات الله وسلامه عليه - بين الأمرَيْن؛ فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣]، فاختار السجنَ على الفاحشة، ثم تبرَّأ إلى الله من حوله وقوّته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا يركَنُ العبدُ إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركَنَ إلى ذلك، تخلَّت عنه عصمةُ الله، وأحاط به الخِذْلان، وقد قال الله تعالى لأكرمِ الخلق عليه وأحبِّهم إليه:

---

(١) انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٠).

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، ولهذا كان من دعائه: «يا مُقَلِّبَ القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك»، وكانت أكثر يمينه: «لا ومُقَلِّبِ القلوب»، كيف وهو الذي أنزل عليه ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد جرَتْ سنة الله تعالى في خلقه أنَّ مَنْ آثر الألَمَ العاجل على الوصال الحرام، أعقبه ذلك في الدنيا المسرَّة التامَّة، وإنْ هلكَ فالفوز العظيم والله تعالى لا يضيعُ ما تحمَّل عبده لأجله»[1].

الانضباط الاجتماعي العام بـ:

تطبيق المنهج الإسلامي في ضبط الغريزة وتوقِّي انحراف الشهوة:

١ ـ تقبيح الزنى والزناة لقبح فعلهم: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣].

٢ ـ أنه شرع الحد على الزنى؛ عقوبة للزاني، وطهرةً له، وطهرة للمجتمع المسلم؛ قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عني قد جعَلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً، الثيِّبُ بالثيِّب: جلدُ مائة، ثم رجم

---

(١) «روضة المحبين» (٤٦٥).

بالحجارة، والبكر بالبكر: جلد مائة، ثم نفي سنة»[1].

٣ ـ تحريم القذف وإقامة الحد على صاحبه؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣].

٤ ـ أنه شرع الاستئذان، وجعل له آدابًا؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧]، ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٩].

٥ ـ أنه شرع غض البصر؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

٦ ـ أنه شرع الحجاب للنساء، وحذَّرهن من التبرُّج صيانة للمجتمع المسلم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

(١) رواه مسلم (١٦٩٠).

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الحزاب: ٥٩]، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٧ ـ أنه أمر المرأة بالقرار في البيت، فلا تخرج إلا لحاجتها؛ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٨ ـ أنه حرم الخلوة بها إلا مع ذي محرم؛ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأة إلا مع ذي محرم**»(١).

٩ ـ أنه حذَّر من الدخول على النساء والاختلاط بهنَّ؛ فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكم والدخولَ على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ الموت**»(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا سلَّم قامَ النساء حين يقضي تسليمه، ومكَثَ يسيرًا قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: فأُرَى ـ واللهُ أعلم ـ أنَّ مكثه لكي يَنْفُذَ النساءُ قبل أن يدركهنَّ من انصرف من القوم»(٣)، وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**خيرُ صفوفِ الرجالِ أوَّلها وشرُّها آخرها، وخيرُ صفوف النساء آخرها وشرها**

(١) رواه البخاري (٥٢٣٣).
(٢) رواه البخاري (٥٢٣٢).
(٣) رواه البخاري (٧٩٣).

أولها»(١).

١٠ ـ أنه حرَّم عليها أن تسافر إلا مع ذي محرم؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تسافِر المرأةُ إلا مع ذي مَحْرَمٍ»(٢).

١١ ـ أنه شرَعَ النكاحَ، وحثَّ عليه، وأمر بتسهيله؛ قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطَبَ إليكم مَنْ تَرْضَوْنَ دينه وخلقه، فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض»(٣).

١٢ ـ أنه شرَعَ الاستعفاف وأمر به؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

نماذجُ مشرقةٌ من قصص الأولين في الصبر على الشهوة، وكيف رفع الله ذكرهم بصبرهم:

يوسف عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ

---

(١) رواه مسلم (٦٦٤).

(٢) رواه البخاري (١٨٦٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٨٦٥).

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٩].

دواعي الوقوع في الحرام من قصة يوسف:

١ ـ الشهوة المركَّبة في طبع الرجل بالميل إلى المرأة.

٢ ـ أنَّ يوسف شابٌ؛ وداعي الشهوة عند الشاب أقوى من الشيخ والصغير.

٣ ـ أن يوسف أعزب، وداعي الشهوة عند الأعزب أقوى من المتزوِّج.

٤ ـ أن يوسف غريب ولا يستحيي الغريب مما يستحيي منه ابنُ البلدِ المعروفُ الذي يخشى الفضيحةَ وتلوُّث السمعة.

٥ ـ أن المرأة ذاتُ منصب وجمال؛ فهي زوجةُ العزيز، والعزيز لن يختار من النساء إلا أجملهنَّ.

٦ ـ أن المرأة لم تكنْ آبيةً أو معترضة، بل هي الداعية الطالبة الملحَّة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وقد يريد الشابُّ الحرام أحيانًا، لكن تظلُّ أمامه عقبة الجرأة والتصريح بالرغبة والطلب، فأسقطَتِ امرأةُ العزيز هنا سائر الحواجز النفسية.

٧ ـ أن المرأة في دارها وسلطانها، بحيث إنه يخشى إنْ لم يجبها

إلى ما تطلب أن يناله أذاها؛ فاجتمع له الرغبة والرهبة.

٨ ـ أنه لا يخشى أن تَنِمَّ عليه؛ لأنها الراضية الراغبة، فيزول لديه خوف الفضيحة ومعرفة الناس بما قارف من السوء.

٩ ـ قُرْبُهُ منها وكونه مملوكًا لها يرى منها ما لا يراه غيره؛ لطولِ الملازمة، وكثرةِ الدخول والخروج، وكذلك لا يثيرُ دخوله عليها وخروجُهُ شبهة لكونه مملوكًا.

١٠ ـ استعانتها بكيد النسوة، وهو كيدٌ عظيم، وتأمَّل ما وصف الله به كيد النساء بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، وما وصف به كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

١١ ـ التوعُّد بالسجن والصَّغَار، وقد وقَعَ؛ فلبث في السجن بضع سنين.

١٢ ـ دياثةُ الزوج، وقلةُ غَيْرته.

قوارب النجاة في قصة يوسف:

ما الأمورُ التي تمسَّك بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فكانت سببًا ـ بعد الله وتوفيقِهِ ـ لحمايته ولنجاحه في هذا الابتلاء؟

الأول: الخوفُ من الله عز وجل، والخوفُ من الله سبحانه وتعالى هو العاصمُ من الوقوع في أيِّ معصية وأيِّ فاحشة، فقد ذكر النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله».

الثاني: توفيقُ الله وإعانته؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ

هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فإنه لو لم ير برهان ربه لَهَمَّ بها، وقال الله عز وجل في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وتأمل كيف أنَّ الله لم يقلْ: «لِنَصْرِفَهُ عن السوء والفحشاء»؛ بل قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ فالسوء والفحشاء صرفت عنه، وهذا أبلغُ من أن يصرف عنها هو.

وكلما ازداد المرء توكُّلاً على الله، ثم أخذ بالأسباب، كان ذلك أولى أن يحفظه الله ويعينه؛ وقد قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفَظِ اللهَ يحفظْكَ**»، وحفظُ الله تبارك وتعالى لعبده يشملُ حفظَهُ في أمور دينه، وحفظَهُ في أمور دنياه، والأول أتم وأولى.

الثالث: فراره من أسباب المعصية؛ فقد خاف من ربه، وحين رأى البرهان لم يَقِفْ بل فَرَّ وسابقها إلى الباب، وقدَّت قميصه من دبر.

إنَّ مفارقة الإنسان لموطن المعصية، وفرارَهُ منه: مما يعينه على تركها، وهو دليل على تفويضه أمره لله عز وجل؛ ولذا فقد نصح الرجل العالم ذاك الرجل الذي أتاه يستفتيه وقد قتَلَ مائةَ نفس، نصحه بأن يخرج من قريته، فهي قريةُ سوء ومعصية، ويغادرها إلى قرية يعمرها الصالحون الأتقياء.

ولن يحتاج الشاب والفتاة اليوم إلى أن يغادر موطنه وقريته، بل ما عليه إلا أن يعزم عزيمةً صادقة على أن يدع أصدقاء الغفلة

وجلساء السوء، ويستبدلَ بهم من يعبدون الله ويخشونه، وأن يتخلَّص من كل ما يقوده إلى المعصية ويذكِّره بها.

الرابع: الدعاء؛ فقد دعا يوسف عليه السلام ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وإذا كان يوسف عليه السلام لا يستغني عن دعاء الله عز وجل وسؤاله، فغيره من باب أولى؛ فالدعاء هو الوسيلة التي يتصل بها المرء بالله عز وجل.

ولذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه لربه: **«اللهمَّ! رحمتَكَ أرجو؛ فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»**[(١)].

الخامس: صلاحُهُ وطاعته وتقواه، وكان ذلك من أسباب توفيق الله له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فكلَّما كان المرء مطيعًا لله حافظًا لحدوده، كان ذلك أدعى إلى أن يحفظه الله، وأن يثبته على طاعته.

ومن هنا فازديادُ المرء من الطاعة والعبادة، وحرصُهُ على ذلك يؤهِّله لتوفيق الله وإعانته له.

السادس: اختيارُهُ السجنَ على فعل الفاحشة؛ فهو يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]، فاختار السجن

---

(١) حديث حسن، أخرجه أبوداود، «صحيح أبي داود» (٤٢٤٦).

ومرارته وفضَّله على أن يقع في هذه المعصية، فحينما وصَلَ الأمرُ به إلى هذا الحد، أعانه الله ووفقه، أما الأذى الذي ناله: فهو من أذى الدنيا، وما هذه الدنيا إلا دار مصائب.

قصة الرجل مع المرأة وهو من الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فأنجاهم الله:

قال النبي ﷺ حاكيًا قولَ ذلك الرجل: «**اللهمَّ! كانت لي بنت عم، كانت أحبَّ الناس إليَّ، فأردتها عن نفسها فامتنعَتْ مني حتى ألمَّت بها سَنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائةَ دينار على أن تخلِّيَ بيني وبين نفسها، ففعلَتْ حتى إذا قَدَرْتُ عليها، قالت: لا أُحِلُّ لكَ أن تَفُضَّ الخاتَمَ إلاَّ بحقه، فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفْتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتركْتُ الذهب الذي أعطيتها. اللهمَّ! إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرُجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة**»[1].

صبر جُرَيْجٍ العابد:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجلٌ يُقال له: جُرَيج، كان يصلِّي جاءته أمه فدعته فقال: أُجِيبُهَا أو أُصلِّي؟ فقالت: اللهم! لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَهُ وجوه المُومِسَات، وكان جُرَيْجٌ في صومعته، فتعرَّضت له امرأة وكلَّمته فأبى، فأتتْ راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا**

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢).

فقالت: مِنْ جُريج، فأتوه فكَسَّروا صومعته وأنزلوه وسبُّوه، فتوضَّأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: مَنْ أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا! إلاَّ مِنْ طين...»[١].

الربيع بن خُثَيْم:

عن سفيان: كان الربيع بن خُثَيْم يَغُضُّ بصره، فمر به نسوة فأطرق حتى ظن النسوة أنه أعمى فتعوَّذْنَ بالله من العمى.

«وأمر قومٌ امرأةً ذات جمالٍ بارعٍ أن تتعرَّض للربيع بن خثيم، فلعلَّها تفتنه، وجعلوا لها إنْ فعلَتْ ذلكَ ألفَ درهم، فلبسَتْ أحسَنَ ما قَدَرَتْ عليه من الثياب، وتطيَّبَتْ بأطيبِ ما قدرت عليه، ثم تعرَّضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نَزَلَتِ الحمى بجسمك فغيَّرت ما أرى من لونك وبهجتك؟! أم كيف بك لو قد نَزَلَ بك مَلَكُ الموت فقطَعَ منك حبل الوتين؟! أم كيف بك لو قد ساءلك منكرٌ ونكير؟! فصرَخَتْ صرخةً فسقَطَتْ مغشيًّا عليها، فوالله لقد أفاقَتْ وبلَغَتْ من عبادة ربها: أنها كانت يوم ماتتْ كأنها جِذْعٌ محترق»[٢].

عُبيد بن عُمير:

قال ابن القيم: «ذكر أبوالفَرَج وغيره أنَّ امرأةً جميلةً كانت بمكة وكان لها زوجٌ فنظَرَتْ يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ١٩١).

لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتتنُ به؟ قال: نعم، قالت: مَنْ؟ قال: عُبَيْد بن عُمَيْر، قالت: فائذنْ لي فيه فلأفتننَّه، قال: قد أذنتُ لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفَرَتْ عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله، استتري، فقالتْ: إنِّي قد فُتِنْتُ بك، قال: إني سائلك عن شيء فإنْ أنتِ صَدَقْتِنِي نظرتُ في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتُكَ، قال: أخبريني لو أنَّ ملك الموت أتاك لِيَقْبِضَ روحك أكان يسرُّك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا! قال: صَدقْتِ، قال: فلو دخلْتِ قبرَكِ وأُجْلِسْتِ للمساءلة، أكان يسرُّكِ أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا! قال: صدقتِ، قال: فلو أنَّ الناس أُعْطُوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرُّكِ أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا! قال: صدَقْتِ، قال: فلو أردتِّ الممر على الصراط، ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرُّكِ أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا! قال: صدَقْتِ، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرُّكِ أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا! قال: صدَقْتِ، قال: فلو وقَفْتِ بين يدي الله للمساءلة، أكان يسرُّكِ أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا! قال: صدَقْتِ، قال: اتقي الله فقد أنعَمَ اللهُ عليك وأحسَنَ إليك، قال: فرجَعَتْ إلى زوجها، فقال: ما صنعْتِ؟ قالت: أنتَ بَطَّالٌ، ونحن بَطَّالون، فأقبلَتْ على الصلاة والصوم والعبادة؛ فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسَدَ عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلة

عروسًا فصيرها راهبة»[١].

عطاء بن يسار:

«عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، قال: خرج عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار حاجَّيْنِ من المدينة، ومعهما أصحاب لهم حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً، فانطلَقَ سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء يصلي، قال: فدخلَتْ عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظنَّ أن لها حاجة، فأوجَزَ في صلاته، ثم قال: ألكِ حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي؟ قالت: قم فأَصِبْ مني؛ فإني قد وَدَقْتُ ولا بعل لي، فقال: إليكِ عني لا تَحْرقيني ونَفْسَكِ بالنار، ونظَرَ إلى امرأة جميلة فجعلَتْ تراوده عن نفسه ويأبى، إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي، ويقول: ويحَكِ إليكِ عني، قال: اشتدَّ بكاؤه، فلمَّا نظرت المرأة إليه، وما داخله من البكاء والجزع، بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي والمرأةُ بين يديه تبكي، فبينما هو كذلك إذْ جاء سليمان من حاجته، فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة بين يديه تبكي في ناحية البيت بكى لبكائهما، لا يدري ما أبكاهما، وجعَلَ أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلَّما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم، لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت، فلما رأت الأعرابية ذلك، قامت فخرجت، قال: فقام القومُ فدخلوا فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة

---

(١) «روضة المحبين» (٣٤٠).

المرأة إجلالاً له وهيبة، قال: وكان أسنَّ منه، قال: ثم إنهما قدما مصر لبعضِ حاجتهما، فلبثا بها ما شاء الله، فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة، قال: وما هي؟ قال: لا تخبرْ بها أحدًا ما دُمْتَ حَيًّا! رأيتُ يوسف النبي في النوم فجئت أنظر إليه، فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حسنه بكيتُ، فنظر إليَّ في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلتُ: بأبي أنت وأمي يا نبي الله! ذكرتُكَ وامرأةَ العزيز وما ابْتُلِيتَ به من أمرها وما لَقِيتَ من السجن ورقَّةَ يعقوب، فبكيتُ من ذلك، وجعلتُ أتعجَّب منه، قال: فهلا تعجَّبْتَ من صاحب المرأة البدوية بالأبواء، فعرفْتُ الذي أراد، فبكيتُ واستيقظْتُ باكيًا، قال سليمان: أي أخي، وما كان من حال تلك المرأة؟ فقصَّ عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحدًا حتى مات عطاء، فحدَّث بها بعده امرأة من أهله، قال: وما شاع هذا الحديثُ بالمدينة إلا بعد موت إسماعيل بن يسار، رضي الله عنهم»[١].

سليمان بن يسار:

«قال مصعب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا، فدخلَتْ عليه امرأة بيته، فسألته نفسه فامتنع عليها فقالت: إذن أفضحَكَ، فخرَجَ هاربًا عن منزله وتركها فيه»[٢].

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٣).

(٢) «روضة المحبين» (٤٦٣).

السَّرِيُّ بن دينـار:

عن «محمد بن إسحاق، قال: نزل السريُّ بن دينار في دار بمصر كانت فيه امرأة جميلة تَفْتِنُ الناس بجمالها، فعلمت المرأة فقالَتْ: لأفتننه، فلمَّا دخلت من باب الدرب، كشفت وأظهرت نفسها، فقال السري: مَالَكِ؟ قالت: هل لَكَ في فراشٍ وطيّ، وعيشٍ رخيّ؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكـم ذي مَعَـاصٍ نـال منهـنَّ لـذةً
ومـات فخـلَّاهـا وذاقَ الـدواهيـا
تَصَـرَّمُ لـذاتُ المعـاصـي وتنقضـي
وتَبْقَـىٰ تِبَـاعَـاتُ المعـاصـي كمـا هيـا
فـواسـوأتـا واللهُ راءٍ وسـامـعٌ
لِعَبْـدٍ بعيـنِ الله يغشـى المعـاصيـا»[1]

أبوبكر المسكي:

قال ابن الجوزي: «قيل لأبي بكر المسكي: إنا لَنَشَمُّ منك رائحةَ المسك مع الدوام، فما سببه؟ فقال: واللهِ إن لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكنْ سببُ ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها، وأغلقَتْ دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي فتحيَّرْتُ في أمري فضاقَتْ بي الحِيَل، فقلت لها: لي حاجةٌ إلى الطهارة، فأمرَتْ جاريةً لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة، ففعلت،

---

(١) «ذم الهوى» (١/ ٢٣٤).

فلما دخلْتُ بيت الراحة، أخذْتُ العَذِرَةَ وألقيتها على جميع جسدي، ثم رجعْتُ إليها وأنا على تلك الحالة، فلمَّا رأتني دهشت، ثم أمرَتْ بإخراجي، فمضيْتُ واغتسلْتُ، فلما كانت تلك الليلة، رأيت في المنام قائلاً يقول لي: فعلْتَ ما لم يفعله غيرك، لأطيبَنَّ ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحتُ والمسكُ يفوح مني واستمر ذلك إلى الآن»[1].

ولم يكنْ ميدان الصبر عن الشهوات المحرَّمة حِكْرًا على الرجال، بل كان عفاف نساء العهد الأول ذا نماذج رائعة:

فعن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أمسى أخذَ دِرَّتَهُ ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يَعُسُّ إذ مرَّ بامرأة على سطح وهي تقول:

تطـاوَلَ هـذا الليـلُ واخضَـلَّ جـانبُـهْ
وأرَّقنـــي أنْ لا خليـــلَ ألاعبُـــهْ
فـــواللهِ لـــولا اللهُ لا ربَّ غيـــرُهُ
لَحُـرِّكَ مِـنْ هـذا السـريـر جـوانبُـهْ
مخـافـةُ ربِّـي والحيـاءُ يصـدُّنـي
وأُكْـرِمُ بعلـي أن تُنَـالَ مَـرَاكِبُـهْ

ثم تنفسَّت الصُّعَداء، وقالت: لهان علَىْ عمر بن الخطاب ما لَقِيتُ الليلة؟ فضرب باب الدار، فقالت: مَنْ هذا الذي يأتي إلى امرأة مُغِيبةٍ هذه الساعةَ؟ فقال: افتحي، فأبَتْ، فلمَّا أكثر عليها،

---

(١) «المواعظ والمجالس» (٢٢٤).

قالت: أما واللهِ لو بلَغَ أميرَ المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها، قال: افتحي أنا أمير المؤمنين، قالت: كذَبْتَ! ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته وجهر لها، فعرفَتْ أنه هو، ففتحت له، فقال: هيه كيف قلتِ؟ فأعادَتْ عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: في بعث كذا وكذا، فبعَثَ إلى عامل ذلك الجند أنْ سرِّح فلان بن فلان، فلمَّا قَدِمَ عليه، قال: اذهب إلى أهلك، ثم دخل على حفصة ابنته، فقال: أيْ بنيَّةُ، كم تصبرُ المرأةُ عن زوجها؟ قالت: شهرًا واثنين وثلاثة، وفي الرابع ينفدُ الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث»[1].

نماذج مظلمة:

وفي المقابل ذكرَتْ لنا كتبُ التاريخ قصصًا مؤلمةً وأصحابَ سير مشينة نأخذ منها العبرة والعِظة، قال ابن كثير:

«وفيها ـ أي سنة ٢٧٨هـ ـ توفي عبده بن عبدالرحيم قبَّحه الله، ذكر ابن الجوزي: أن هذا الشقيَّ كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصرو بلدة من بلاد الروم، إذْ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها فراسلها ما السبيلُ إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصَّر وتصعَدَ إليَّ فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتمَّ المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشَقَّ عليهم مشقَّة عظيمة، فلمَّا

---

(١) «روضة المحبين» (٢١٠).

كان بعد مدة مَرُّوا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فَعَلَ قرآنُكَ؟! ما فعل علمك؟! ما فعل صيامك؟! ما فعل جهادك؟! ما فعلت صلاتك؟! فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢، ٣]، وقد صار لي فيهم مالٌ وولد»[١].

قال ابن العماد:

«ذكر ابن النجار في تاريخه: أن فقيهًا يُقال له: ابن السقا، سأله ـ أي: سأل أبا إسحاق الشيرازي ـ عن مسألة وأساء معه الأدب، فقال له أبو إسحاق الشيرازي: اجلس؛ فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، وكان أحدَ القراءِ حَفَظَةِ القرآن، فاتفق أنه تنصَّر ومات عليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة، وذلك أنه خرَجَ إلى بلد الروم رسولاً من الخليفة، فافتتن بابنة الملك، فطلب زواجها فامتنعوا إلا أن يتنصَّر فتنصر، ورئي في القسطنطينية مريضًا وبيده خلق مروحة يذب بها الذبابَ عن وجهه، فسئل عن القرآن؟ فذكر أنه نسيه إلا آيةً واحدة وهي: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]»[٢].

قال ابن القيم:

«ويروى أنه كان بمصر رجلٌ يلزم المسجد للأذان والصلاة

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٤).
(٢) «شذرات الذهب» (٢/ ١١).

فيه، وعليه بهاءُ الطاعة ونورُ العبادة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دارٌ لنصراني، فاطَّلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالتْ له: ما شأنك، وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: قد سَلَبْتِ لُبِّي وأخذْتِ بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبُكَ إلى ريبة أبدًا، قال: أتزوَّجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصَّر، قالت: إن فعلْتَ أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوَّجها وأقام معهم في الدار، فلمَّا كان في أثناء ذلك اليوم، رقي إلى سطح كان في الدار فسقَطَ منه فمات، فلم يظفر، بها وفاته دينه»[١].

ومما يخفّف وطأة الشهوات على المسلم:

تذكُّر عاقبة العفة:

قد يظن بعضُ مَنْ أسرتهم الشهوات: أن الذين سلكوا طريق العفة يعيشون المعاناةَ مع النفس، والحرمانَ من اللذائذ، ويجهل هؤلاء أن للعفة ثمراتٍ عاجلةً وآجلة، ثمراتٍ يجنيها المرء في الدنيا، وثمراتٍ يجنيها في الآخرة، ومن هذه الثمرات:

١ ـ الفلاح وثناء الله تعالى:

يفرح الناس بثناء البَشَر والمخلوقين، ويعتزون بذلك؛ فالطالب يفرحُ بثناء معلِّمه عليه أمام زملائه، والطالبةُ تسعد بثناء معلِّمتها، وحين يكون الثناء والتزكية ممَّن له شهرة بين الناس تعلو

---

(١) «الداء والدواء» (١١٨).

قيمة الثناء، فكيف إذا كان الثناء مِنْ خَالِقِ البشر جميعًا، وخالِق السموات والأرض بمن فيهن؟! قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧].

إنه ثناءٌ لا يعدله ثناء، شهادةٌ من الله تبارك وتعالى لهؤلاء بالإيمان، وإخبارٌ عن فلاح هؤلاء الذين من صفاتهم حفظُ الفرج والتجافي عن الفواحش، فهل يستبدلُ عاقلٌ بذلك شهوةً عاجلة ولذة فانية؟!

٢ ـ الجنة والنعيم المقيم:

وعد الله تبارك وتعالى أهل العفة والحافظين فروجهم بالجنة والخلود فيها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

ويخبر ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ عن وعد صادق، فيقول: **«مَنْ يَضْمَنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رجليه، أضمن له الجنة»**(١).

فحين تَعِفُّ نفسك عن الحرام، وتحفظ جوارحك، ينطبق عليك وعد الله تبارك وتعالى، ووعدُ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى باستحقاق الجنة وضمانها؛ فهل لديكَ مطلَبٌ أغلى من

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤)، والترمذي (٢٤٠٨).

الجنة؟!

اسأل العالِمَ الذي يقضي وقته في العلم والتعليم، اسأل العابدَ الذي يَنْصَبُ في عبادة ربه، اسأل المجاهد الذي يبذل نفسه في سبيل الله، اسأل الذي يضحِّي بنفسه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، اسأل الداعية الذي يواصلُ سَهَرَ الليل بكدِّ النهار ويقيمه هَمُّ الدعوة ويقعده، اسألْ هؤلاء جميعًا لِمَ يصنعون ذلك؟ سيجيبونك بإجابة واحدة: «نريد الجنة»؛ إنها مطلب السائرين إلى الله عز وجل، مهما تنوَّعت بهم السُّبُل.

فبادِرْ أخي الكريم، وبادري أختي الكريمة، بضمان جوارحكم؛ عن الحرام لتستحقوا هذا الوعد النبوي الصادق.

٣ ـ الطمأنينة وراحة البال:

يعاني مَنْ يسير وراء شهوته المحرَّمة عذابًا وجحيمًا لا يُطاق، أما مَنْ يعف نفسه فيعيش طمأنينة وراحة بال، إن الهمَّ الذي يشغله ليس الهم الذي يشغل سائر الناس، والتفكيرُ الذي يسيطر عليه ليس التفكيرَ الذي يسيطر على سائر الناس، ولا عجَبَ في ذلك؛ فالله تبارك وتعالى هو الذي خلق الإنسان وهو أعلَمُ به، وخلقه لعبادته وطاعته، ومِنْ ثَمَّ فلن يعيش الحياةَ السوية المستقرة ما لم يستقمْ على طاعة الله تبارك وتعالى، فالسيارةُ التي صُنِعَتْ لتسير في الطرق المعبَّدة يصعبُ أن تسير في غيرها، والقطارُ الذي صنع ليسير على القضبان حين ينحرف عن مساره لا يستطيع المسير. وهكذا الإنسان فهو إنما خُلِقَ لعبادة الله وطاعته، فإذا انحرَفَ عن هذا الطريق اضطربَتْ حياته، وعانى من المشكلات؛ ولذا فأهلُ الكفر والإلحاد

أقَلُّ الناس استقرارًا وطمأنينة، وكلَّما اقترب العبد من الإيمان والطاعة ازداد استقرارًا وطمأنينة.

٤ ـ لذة الانتصار على النفس:

لئن كان اللاهون العابثون يجدون لذَّةَ ممارسة الحرام، فالشابُّ العفيفُ والفتاةُ العفيفة يجدان من لذة الانتصار على النفس أعظَمَ ممَّا يجده أصحاب الشهوات، إنَّ الرجولة والإنسانية الحقَّة أن يَقْدِرَ المرء أن يقول لنفسه: «لا» حين يحتاج إلى ذلك، وأن تكونَ شهواتُهُ مَقُودَةً لا قائدة، أما الذي تحرِّكه شهوته وتستعبده فهو أقربُ ما يكون إلى الحيوان البهيم الذي لا يحولُ بينه وبين إتيان الشهوة سوى الرغبةِ فيها.

قال الشاعر:

رُبَّ مستـورٍ سَبَتْـهُ شهـوةٌ
فتَعَـرَّى سِتْـرُهُ فَـانْتُهِكَـا
صـاحـبُ الشهـوةِ عبـدٌ فـإذا
غَلَـبَ الشهـوةَ أضحـى مَلِكَـا

وعاقبةُ الصبر عن اللذات جميلة؛ قال الشاعر:

صبَـرْتُ عـن اللـذَّاتِ لمَّـا تـولَّـتِ
وألـزمْـتُ نفسـي صَبْـرَهَـا فـاستَمَـرَّتِ
ومـا المـرءُ إلا حيـثُ يَجْعَـلُ نفسَـهُ
فـإنْ طَمِعْـتَ تـاقَـتْ وإلا تَسَلَّـتِ

والمعنى: صبَّرْتُ نفسي لمَّا تولتِ اللذات، فتعوَّدَتْ نفسي الصبر بعدما ألزمتها على ذلك.

والنفس بحسب ما تعتاد؛ فإنْ عوَّدتها على شيء تاقَتْ إليه، وإلا نسيته.

والنفسُ كالطِّفْلِ إنْ تهمله شَبَّ على
حُـبِّ الـرَّضَـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ ينفطـمِ

ونختم بتذكرة لابن الجوزي يقول فيها:

«مَنْ عاين بعين بصيرته تناهِيَ الأمور في بدايتها، نال خيرها ونجا مِنْ شرها، ومَن لم ير العواقبَ غلَبَ عليه الحس، فعاد عليه بالألم ما طلَبَ منه السلامة، وبالنصب ما رجا منه الراحة. وبيانُ هذا في المستقبل يتبيَّن بذكر الماضي، وهو أنك لا تخلو أن تكون عَصَيْتَ الله في عمرك أو أطعته؛ فأين لذة معصيتك؟ وأين تعب طاعتك؟ هيهاتَ!! رحَلَ كلٌّ بما فيه، فليتَ الذنوب إذا تخلَّت خَلَّت.

وأزيدك في هذا بيانًا: مثِّل لنفسك ساعة الموت، وانظُرْ مرارة الحسرات على التفريط، ولا أقول: كيف تغلبُ حلاوة اللذات؛ لأنَّ حلاوة اللذات استحالَتْ حنظلاً فبقيَتْ مرارةُ الأسى بلا مقاوم. أتراك ما علمت أنَّ الأمر بعواقبه؟ فراقِبِ العواقب تسلَمْ، ولا تَمِلْ مع هوى الحِسِّ فتندم.

وذكِّرْ نفسك أنَّ الموت خيرٌ لك من ارتكاب الحرام.

جاء رجل إلى الشافعي برقعة فيها:

سَـلِ المُفْتِيَ المكِّـيَّ مـن آل هـاشـمٍ
إذا اشتدَّ وَجْدٌ بامرئ كيف يَصْنَعُ؟!

قال: فكتب الشافعي تحته:

يُـداوي هــواهُ ثُــمَّ يَكْتُــمُ وَجْــدَهُ
ويصبـرُ فـي كُـلِّ الأمـور ويَخْضَـعُ!

فأخذها صاحبها وذهَبَ بها، ثم جاءه، وقد كتب تحت ما تقدم:

فكيـفَ يـداوي والهـوَىٰ قـاتـلُ الفتـى
وفــي كُـلِّ يــومٍ غُصَّــةً يَتَجَــرَّعُ؟!

فكتب له الشافعي تحتها:

فـإنْ هـو لـم يَصْبِـرْ علـى مـا أصابَـهُ
فَلَيْسَ لَـهُ شـيءٌ سـوى المَـوْتِ أَنْفَـعُ!

تذكَّر تذكَّر تذكَّر:

قـــد كـــان عُمْـــرُكَ مِيـــلاً
فـــأصبَـــحَ المِيـــلُ شِبْـــرًا
وأصبَـــحَ الشِّبْـــرُ عقْـــدًا
فـــاحْفِـــرْ لنفســـكَ قَبْـــرًا

اللهمَّ أغننا بحلالك عن حرامك، وارزقنا العفَّة والعفاف والصبر، واجعل بيننا وبين الحرام برزخًا وحِجْرًا محجورًا!

محمد صالح المنجد

الخبر ص.ب ٢٩٩٩

www.islam.ws

* * *

الفهـــرس

* * *